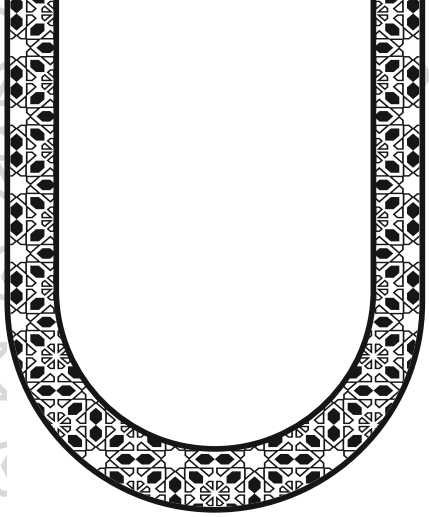

قناطـــــــر

مدوَّنةُ بصـريّة جدّاً

814
ع ٦٩٥ عبـــد العزيز طالـــب
قنـــاطر (مدونـــة بصرية جداً) / طالب عبد العزيز
ط١، البصـــرة، ديـــوان محافظـــة البصـــرة، ٢٠٢٤م
٢٠٢٤م، ١٢٨ ص. ، ٢٤ سم
١. المقالات العربية، أ. العنـــــوان.
رقـــم الايداع
٤٩٣/ ٢٠٢٤م

المكتبـــة الوطنيـــة / الفهرســـة أثنـــاء النشـــر

رقـــم الايـــداع فـــي دار الكتـــب والوثـــائـــق ببغداد (٤٩٣) لسنـــة ٢٠٢٤م

طبـــع فـــي
جمهورية العراق محافظة البصرة
برعـــايـــة
ديوان محافظة البصرة

كل الحقوق محفوظة للناشر

جميع الحقوق محفوظة باستثناء اقتباس فقرات قصيرة لغرض النقد أو المراجعة، فلا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو تخزينه في نظام الاسترجاع أو نقله بأي طريقة من دون الحصول على إذن مسبق من الناشر.

All rights reserved. Except for the quotation of short passages for purposes of criticism or review, no part of this publication may be reproduced, stored in retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, without written permission of the publisher.

الطبعة الأولى
2024

ديوان محافظة البصرة
BASRA GOVERNORATE
Republic Of Iraq - Basra Governorate
www.basra.gov.iq/ar

البصرة

تاريخ عريق وثقافة متجددة

سلسلة إصدارات تهتم بالشأن البصري تصدر عن ديوان محافظة البصرة

قناطر

مدوَّنةٌ بصريّة جدّاً

طالب عبد العزيز

ديوان محافظة البصرة
2024

04

إني ليحزُنني أنْ أدنوَ من فسيلٍ
لا اشمُّ رائحتَك فيه

كتاب النخل.. كتاب البصرة

كان أبو حاتم السجستاني(ت. ٢٥٥ للهجرة) قد صلّى التراويح ستين سنة في المسجد الجامع بالبصرة، فما أخطا ولا لحَن يوماً، ولا اسقطَ حرفاً.. وكان يقول:

" إذا أردتَ أنْ تُضمِّنَ كتاباً سراً فخذْ لبناً حليباً، فاكتبْ به في قرطاس، فيذرُّ المكتوبُ اليهِ عليهِ رماداً سُخْناً من رمادِ القراطيسِ فيظهرُ المكتوب".

بالدراية هذه كتب السجستاني(كتاب النخلة) وهو كتابٌ في الغرس والرِّي والثمر والتصاريف، فما غادر صغيرة ولا كبيرة إلا وضعها فيه، هو الذي ولد ونشأ في البصرة، وارتبطت حياته بها، وهو الذي عمل في مهنة الوراقة وبيع الكتب، فلا ينكرنَّ احدٌ علينا صنعة في نخل أو حرفة من كتابة، فما نحن إلا من ذاك الخُمس من المدينة.

وأكمل الشيخ عبد القادر باش أعيان طباعة الجزء الأول من كتابه (خطط البصرة) سنة ١٩٦٩ لكنَّ أحدَ عشر جزءًا منه ظلت وديعة مكتبة الاسرة، التي بالبصرة القديمة، حيث يكون مجلسُ بائعات اللبن بالزبدة تحت حائطه، والآيبات الى منازلهن في الظهيرة أكثر من الباقيات، وكان أصدر قبل ذلك كتاباً سمّاه(كتاب النخلة) أيضاً، جعله تكملة لما ابتدأه أسلافُه الكوازيّون، البصريون. ولأنه مولود في ابي الخصيب، فقد جلس عبد الجبار البكر بقرية بلد سلطان سنوات طوالاً ليكتب لنا كتاباً ثالثاً باسم (نخلة التمر) وليكون خاتمة الكتب، وضالة كلِّ غارس نخل، في المملكة العربية السعودية، وعموم إمارات الخليج، كان عبد الجبار قد غادر البصرةَ ولم يعد، ذلك لأن النخل لم يعد ثروةً.

لا أعرف ما أذا كان ينبغي لي أن أظلَّ غافلاً أم لا؟ فلا أكتب كتاباً آخرَ، لكنني أذكر أنَّ الشمس كانت عاقلة بما يكفي لنومة هانئة، تحت نخلة، يوم خرج علي بن

محمد وجماعته من قرية جيكور، سنة ٢٥٥ للهجرة، شاهرين مناجلهم بوجه (اسيادهم) باحثين بين الأنهار والنخل والسماء الغائمة، عن الخبز الذي نثروا حنطته الأولى في أرض الاسياد، وقد أكملوا قشط الملح عن أديمه-مازال أحفادُهم يقشطونه الى اليوم-ويجوعون، وليس بين أيديهم سوى الصاع والصاعين من برٍّ أسودَ وتمر رديء، فيما الملح يتوغل عميقاً في جروحهم، ودخل عليهم بيوتهم، التي لم تأمنهم من خوف وجوع.

ولم يدر في خَلَدِ الصِّبية الذين خرجوا ليلة الثامن والعشرين من شوال الأخير، بقرية الصنكر، في أبي الخصيب، التي تفصلها عن جيكور بضعة أجربة من النخل والانهار، وقطعوا بالإطارات المحترقة الطريق التي الى البصرة، إنهم، إنما يرجعون في بعض انسابهم الى صاحب الزَّنج، عليّ بن محمد، وأنهم حفدة أولئك اليامين، الذين قوّضوا اركان دولة الخليفة، الواثق وابنه محمد، وإني لأجزم أنْ لا أحد بينهم، يعتقد بذلك، لكنه الملح ذاته، الذي قشطه أجدادهم ذات يوم، يصعد ثانية وثالثة وعاشرة أنهارَهم وسواقيهم، ويدخل عليهم صنبور المطبخ والمستحم وبيت الراحة، ويتسبب بالبثور في أبدان أبنائهم، وبعمى أبقارهم، ونفوق البلابل والعصافير في اشجارهم. كنتُ جاهزاً لأسمع من أحدهم هتافاً يصيح: أهذا ما حدثتنا به يا خالد ابن صفوان، أهذه الجنة التي زعمت يا ابن عبد الله القسري. البؤس والهوان ما حدثتنا به يا أبا حاتم السجستاني. فيأتي صوت الشاعر بدر بن شاكر السياب نحيلا، خائفاً: "ما مرَّ عامٌ والعراق ليس فيه جوع".

كانت ومازالت البصرةُ مدينةً لا يُؤتمن صمتُها، وما يمور في سككها وازقتها قديم، قديم، وأنا مثلك أيها السجستاني، ابن نخل، ولدتُ فيه، وأخذتُ عنه الخجل والشعر والنوم في المفازات، وتصفحتُ المدينة، وهي تتقلب في كتابك(كتاب الحر والبرد والشمس والقمر والليل والنهار) ومعك كنت غارساً، ساقياً، جانياً في (كتاب الزرع)والى ما لا أحصي عليك من المكارم أخذتني في (كتاب الشجر

والنبات) الذي لم يعد الآن منه شيء، وآنستُ المخلوقات مثلك في (كتب الطير) وأهداني احدهم كتابك (كتاب اللّباء واللبن والحليب) فكنت أغمس رغيفي بقعبه، متلذذاً صباح كل يوم، لكنني ، توقفت طويلا عند كتابك (كتاب المياه) ذلك لأنني ما وجدتك فيه متحدثاً في الملح وطبائع المد والجزر. هو ماؤنا اليوم، المرُّ، الزعاف، الذي صعد شط العرب، دجلة العوراء، كما يسميه البلاذري في فتوحه.

ولأنني كذلك فقد كتبتُ قبل هذا كتاباً سميتهُ(قبل خراب البصرة- كتاب الماء والنخل) ثم كتاباً آخرَ سميته(الخصيبي) وثالثاً باسم (كتاب ابي الخصيب) وربما فتشتُ في ايقونات حاسوبي فعثرتُ على رابع لم اسمّه بعد، وهكذا أكون قد وفيت ما برقبتي من دين، وتركتُ أثراً وإن امحى بعد عين، سمّاني بعضُهم بالخصيبي، واتهمني غير واحد بالبصرية والجنوبية والمناطقية فضيقوا حواليَّ مُقامي في المكان، وشنَّع غيرُهم عليَّ الانتماءَ والولاءَ والتعلقَ والوفاء، وهم في هذه وتلك تعوزهم الاسباب، وتفارقهم الاصلاب. كيف لا أكون كذلك وقد أطعم ابي أمي في نفاسها تمرا، وعقدت القابلةُ خيط سرتي بخوصة، وقمّطتني جدتي بحبلٍ من ليف، وكان سريري جريد، ووسادتي حلفاء، ونعلي كربة فحل.

لا أكتب مديحاً في المكان، مع أنني مفجوعٌ بالمكان والزمان، ولست بوارد تمجيدهما، بعد أن أزيح حريرُ الجمال عن وجه الارض، وتكشفت عورة العاملين، وزحفت المدينة باسمنتها وحديدها على النخل والانهار والقرى والاسماء ، وما انا في الصفحات هذا بمستجيب لنداء رومانسي ابداً، أو نائح وبكّاء على طلل مندرس، هو رثاء خاص، واستحضار فردوسٍ كان قائماً ذات يوم، لم يُعتنَ به كما يجب، فجرِّف وخرِّب وانتهى مع الحلم ذاك، الذي كنت واحداً من الشهود عليه.

في فضلِ أهلِ النّخل على العالَمين

أستودَعتك أمّك إلى أصل كرمة، وذهبتِ تُعدُّ الشاي لأبيك، وقد انكشفت الشمسُ عن قدميك، وهما تحفران الارض، سعيا وراءها؟ أوقفتَ تحصي العراجينَ تحت جناحها، وهي تبتسم لك من البعيد؟ أتنفستَ من رئة الارض، وقد ارتوت بمطر البارحة، الذي وصل النهر بما جعله الوالدان فسحة للعبك وتجوالك؟ أنعمت النظر في قُلَبِ النخل، وقد إزرقّت زهواً وينعاً وطفولة؟ أدنوتَ من لفافة السعف التي أحاطت الفسيل، الذي أنبتهُ شقيقُك الاكبر الربيع الماضي، وقد تفتقت عن يابسه خويصاتٌ خضر، كأنهنَّ الوشمُ على أذرع الاطفال، المربوطين في المزارات البعيدة؟ إذا كنت ذلك كله، تعال أسمعك ما قاله الاعرابيُّ للاصمعي، وقد فاضله في نخل وتمر أهله: «تمرنا جُرّدٌ[1] فَطْسٌ[2]، يغيبُ فيه الضرسِ، كأنَّ نُواهُ السُنُ الطير، تضعُ التمرةَ في فيكَ فتجدُ حلاوتها في كعْبيك.

كان مطر البارحة فتقاً في السماء، انهمر قبل الفجر الاول، وأنت تعلم يا صاحبي أنَّ الفجر في البصرة فجران، فيما النهار واحد في كل الدنيا، والليل تقطعه أنفاس الخلق، وتلطع أنجمَه الدوابُ والهوام، ولا مجلسَ لأمثالنا، إلا ما أظله النخل، وافترشته المودة، وهذه الارض تبتكر مهرجاناً لمن عليها الساعة هذه، فقد أمضيتُ الليلة خفيفاً، منصتاً للضوء، تطيحُ الريحُ بقرونه في شرفة المنزل، أحصي المباهج،

---

١. جرد: ناعمة

٢. فطس: صغار التمر غارت أقماعه

فما واربتْ دوني باباً، ولا أقول اتقيت ستارة، ولا جانبت ريحاً، فقد كنتُ مطلق الخطوات، أتعددُ في الامكنة، وأدفع بالسعف النديِّ أطراف الآس، مخافة أن أضن عليه بشيء، وقد نالني من المطر ما نالني، فتبللتْ لفائفُ قطنٍ، كنت أحكمتها على كتفي، وفقدتُ عصاً، هي الثالثة، لم أتبينها في ضجّة ما تداكك وانقلب، يالهذه الليلة التي لا تنقضي بحلم، ولا تتكرر بعناق.

ولمن لا يقول في فضل أهل الماء والتمر على أهل الحجر والطابوق، ولم ينصفْ أهلَ النخل والظلال على ذهابه في السرفات، وهِجران أهله، وعلى قبح أفعال أهل الجسكارات والجرافات، أقول لك : بلغني أنَّ ابن قتيبة الدينوري، كتب في (عيون الاخبار) بأنه قيل لفرقد السَبَخي: يا أبا يعقوب، بلغنا أنك لا تأكل الفالوذج[1]، فقال: يا أبا سعيد، أخاف أن لا أؤدي شُكْرَهُ !! هكذا، نحن يا صاحبي، ما أدينا شكر النخل، ولا فضل الرطب، ولا نعمة الظلال، وحالنا كذاك الاعرابي الذي قال بفضلِ العسلِ على الرُّطب، فقيل له: أتجعلُ عسلةً في أخشاء البقرِ كعسلةٍ في جوِّ السماء، لها حارس من جريد، وذوائبُ من زُمُرُّدْ؟

بين هذه وتلك هاتفني أمس، من نخيله على شط العرب، بنهر خوز، أسعد الدغمان، وهو ممن إذا شددتَ عضُدَك به أمنِت، وبعد أن طمأنني على بيته وعياله، سألته ما إذا كان في بستانه فسيل فحلٍ غناميٍّ، أغرسه، وأتاملـه فحلاً، أفحلُ منه إناث نخلي، فلا يخيبُ ظنّي بواحدة، فأجابني: أنْ، نعمْ. ثم جاذبني الحديث عن فحول السوء الغيبانية، الخِكْريّ منها والسمَيسَميّ، وحين أعلمته بأنَّ فحلاً خِكرياً صغيراً أطلع عندي قبل أعيانه وخلّانه، قال: سامحك الله، لا تأمنه على نخلك، هو لقاحٌ فطير، مما نمضغه لأطفالنا، ونقدّمه علفاً لأبقارنا، فإياكهُ.

---

١. الفالوذج: نوع من الحلوى

اللبنُ أعطيات والوردُ يُتهادى

أشهدُ أنني عشت زمناً لا حاجة للناس فيه الى النقود، إنما هم يقايضون حاجاتهم ببعض حاجات عند آخرين، يُتفق فيها على مقدار هذه، وزنة تلك. كأن يقول أحدُهم لصاحبه: تريدُ تمراً؟ أعطني نصف زنته بطيخاً، تريدُ حنطةً؟ اعطني مقدارَ مُدٍّ منه شعيراً، تُريد بيضاً أو حليباً أو لبناً؟ اعطني ملء زنبيلٍ حشيشاً، أو هبْني من حقلك مشارة برسيم. على هذه وجدتهم أبشَّ وجهاً، وأندىٰ يداً، وأرقَّ قلباً، وأكثر تراحماً.

كان الرُّطب والعنب في جنوبي البصرة لا يُباع في اسواقها، وكذلك ماء الورد، والطلع، والحليب، واللبن، والسَّمن وغيرها، إنما هذه حاجاتٌ تتهادىٰ، الذي يباع هو التمر، وإذا نصب أحدهم شباكاً في نهر من الانهار دعا الناس الى صيد السمك فيه، فترىٰ القرية كلها قد أخذت حصتها منه، فترادف السمكُ على الرز، وامتلأت الأرغفة به، وشبعت البطون. وإذا بحثتَ عن أجير تستأجره لبستانك فلن تجده، اطلب مساعدة من تصادفه في طريقك، ستنشقُّ الارض عن حارثين، وباذراين، وحاصدين، وغارسين، وصاعدي نخل.. كلُّ يقول لك: أنا لها.

وإذا أردت أن تشيد داراً لعيالك، شيدوها لك، بأعجل ما يكون، كل من حولك سيأتيك شاهراً جسده، وإذا أشعرتهم بحاجة نفسك في شيء ما، جاؤوك بما لا تتخيله، وإن ضامك الدَّهرُ يوماً وجدتهم عندك، بما فيهم من عزْم وبذل ومواساة، ولن يفارقك أحد منهم إن طغىٰ ماءُ النهر على ما غرست وانتظرت، سيقفون بأجسادهم دكاً دكاً على حدود بستانك، فلا تندب حظاً عاثراً هناك، ولا تتبرم إن لم

يحالفك موسمٌ ما، فلن تجوع بينهم، ولن تعرىٰ تحت سماء لطفهم، فهم الاهل والعشير، وإنْ كان دمُك غيرَ موصول بدمهم، وإنْ كنتُ لا تحمل نسباً معروفاً بينهم. الناس هنا من طين وماء ونخل، دينهم الوفاء، وطائفتهم المودة ، وإمامهم الخير حيث يكون.

أشهدُ أنَّ قفل باب بيتنا كان قضيب حديد، يدعونه (هِيبٌ) هو مما يستعمله الناس في شرح الجذوع، وهدم حيطان الطين القديمة، يوضع مائلاً علىٰ الباب، بما لا يمكّنُ الوحوش من اقتحام البيت، وترويع من فيه من النساء والاطفال والبقر والدجاج والاوز، فلا لصوص هنا، واخصاص الناس آمنةٌ كلها، إلا من خنزير وحشي آبق، أو من ذئب لحقته الكلاب، أو من ثعلب ماكر جائع ، هؤلاء هم خصومنا في الليل، أما في النهار فلا خصوم ولا هم يحزنون، والناس آمنين علىٰ ما عندهم، راضين بما قسّم البارئ لهم. بندقية واحدة تكفي لترويع "أفق من الذئاب" وطلقة واحدة مجزيةٌ لطرد قطيع من الخنازير، اما الثعالب فحسبها قطٌّ شرسٌ وجروٌ صغير.

من يُغيثنا اليوم مما في بيوتنا من الرصاص والبنادق؟ ومن جيران لا نأمنهم علىٰ أبخس ما نملك، من يستبدلُ خصومنا الآدميينَّ بوحوش القرية تلك، التي كانت تداهمنا ليلاً، من يأخذ بأذرعنا الىٰ بستان نُعين صاحبَه علىٰ غرس أو جني، هو مما كان له ولنا ذات يوم، من يدلّنا علىٰ بيت تناهبته عاصفة البارحة، فنلمُّ عليه حياطينه الطين وسقفه الجذوع؟ من يستغيث بنا من ماء طغىٰ بأرضه وروّعه، ومن يستعين بنا علىٰ سماء ادلهمت عليه، ومن نخل تعاظم ثمره فهو لا يستطيعه جنياً وحملا؟ من؟ ومن؟

الطريق الترابية تلك

أطينَ الشارعُ الـذي الى البيـت، صـار مـوحلاً أكثـرَ، كـان مطـر البارحـة غـدقاً وثجيجاً، تلقفت الارضُ كثيراً من ورد الياسـمين الاحمـر المنسـرح مـن الاسـيجة، يتجنبه بعضهم، وآخرون لا يعنيهم مـن حمرتـه شـيئاً. يقـول ابنـي: كانـت الأقـدام تعجنه، وكنت اسمع نداءه، فيما الممشى الضيّق ما زال يحدِّثُ بائعَ الآمال عن الـذين لم تمهلهـم المزاريـب وقتـاً لأوبـتهم، فاتخـذوا مـن ثيـابهم وأكيـاس الخـيش منجـاةً لرؤوسهم.

احفظُ عن ظهر قلب الطريق تلكَ، أحبّها، وأعشق السير عليها في الليالي الماطرة، هناك شيء من لطف وترفق تبعث به لقلبـي، الطريـق هـذه أكثـر آمنـاً مـن شـوارع وأرصفة المدينة، فأنا لا أتفادى سوى الاغصان الندية والسعفَ الرطب فيها، وهبْني تعثرتُ وسقطتُ، فهي أرفق بجسدي من الاسفلت، ملائكة واصحاب كرامـات لا حصـر لهم سيضعون أيديهم تحت ركبي وانا أسقط. وما العشب الغـارق بخضـرته بأقل منهم ترفقاً ورفقةً، هل أكتب سيرة للطريق؟ ربما.

في التوصـيف العام غالباً ما تكون الطرق الريفية في الجنوب وفي البصـرة خاصة، عبارة عن شق ترابي بين النخيل، تتقاطع عليه جسور من الجذوع والاشـجار، وبـلا تفاصـيل أكثر، هي هكذا، دائماً، لكنَّ الاستعمال اليومي لجميع القـادمين والآيبـين، من الفلاحين والمزارعين في الرحلة الأبدية، رحلة الغُدوّ والآصـال، غـير المنقطعـة، لسنوات طويلة، لابدَّ أنهم أثثوها بعلامات ودوال، هنـا وهنـاك، فصـاروا يسـمّون البداية والمنتصف والنهاية باسماء تواتروا عليها، وكذلك صنعوا مع الربـع الاول أو الربع الاخير منها، وهكذا، صاروا يتوقفون في مفازة مـا يسـمونها، فيقولـون لآخـر ينتظرهم بانهم عندها، أو بعد الطوف، الـذي يـلي شـجرة الخرنـوب، او أنهـم عنـد السدرة الشعثاء التي ببستان فلان، ويومـاً بعـد آخـرَ أمسـت أجـزاء الطريـق تلـك

معلومةً، مسماةً في دائرة الطابو، وواضحة في بيانات البلدية والنفوس ودائرة الامن أيضاً.

عبر مئات من السنوات استبدل اهل قرية عويسيان التسميات تلك، فما كان علامة عند نخلة ماتت اضطروا الى استحداث تسمية أخرى ، وكلما هدّت الامطار سياج بستان ما ضاع أثرٌ في جغرافية الطريق، وعبر متوالية البناء والهدم والغرس والحفر والردم والهلاك... ازدحمت الامكنة هذه بعشرات الاسماء، ففي المكان، حيث أجلس الساعة هذه، كانت تداس الحنطة بحوافر الخيول والحمير، وليس بعيداً عنه كانت معصرة التمر(المدبسة) وعند رقبة النهر، حيث شجرة التوت العملاقة، كانت تربط اليها حبال قوارب نقل التمر وهكذا، أطلقوا اسم(المْداسَة)على مكان جمع ودرس الحنطة والشعير، وعلى محل عصر التمر (المدبسة) وعلى رقبة النهر (مربط المهيلات) ووو.

لا تسع الورقة تعداد اسماء الامكنة التي لم يبق اليوم من رسومها شيئ، فقد اختفت معالم الطريق، وتفرّقت التسميات، ولم يعد يتداولها الناس، انتفت الحاجة لها، بعد أن أزيح كثير من النخل والاشجار، وأقيمت الجسور الكونكريتية على الانهار، التي لم تحتفظ باسمائها أيضاً، فقد عّبدت البلدية طريق التراب بالاسفلت. قليلون هم أولئك الذين يعرفون اسم النهر الاول، نحن نسمّيه (الاردبة) أو أبو گناطر، والثاني اسمه (الوسطاني) والثالث (أبو الكشك) والرابع (خريبط) والخامس (البيريف) هل نسيت (الهويرة) نعم، فهي نهر منبتر، عليه املاك وبساتين بيت عبد الحليم، وبستان ملّا حمد، ويشرب منها بستان أحمد الورد. هل انتهت الحكاية؟ أبداً، ترى ماذا عن دراكيل العَمَّارَة الواقفين فجر كل يوم قرب بيت حجي معتوق، والمانحين ظهورهم حائط الطين ببيت (ابودريس)؟ لقد طلعت الشمس عليهم، وعادوا لبيوتهم ، ولا أحد يطلبهم لبستانه في كري وحراثة، فقد كان مطر البارحة غدقاً وثجيجاً.

فسيل أقصى السِّباخ

"إني ليحزُنني أنّ أدنوَ من فسيلٍ لا أشمُّ رائحتَك فيه" هذا ما كتبتُه عن ابي، ذات يوم، في قصيدة لي. ومثل هذه وتلك كنت كتبت قصائد عن التراب والجذوع والأنهار والرياح والقوارب والأشرعة في البصرة وابي الخصيب، هذا التأثيث الذي شكل نوع العلاقة بالأهل والأجداد والناس والمكان وما فيه، العلاقة التي تمتد طويلاً في التاريخ، وتشبثت به، وما زالت تتمرأى وردية في الاخيلة والأحلام، عبر جملة وشائج، يصعب التخلص منها في لحظة يأس عابرة، فهي نسيج روح ودم وعروق وأنفاس وحيوات سرت في الأمشاج، وخالطت الشراسيف[1] وتأبدت في الأمكنة والأزمنة فأضحت في جوهرها وعارضها.

أعتقد أن الأمر بسيط الى حدٍّ ما مع سُكنى المدينة، فاستبدال منزل بآخر في مكان، يتشابه فيه الحجر والإسمنت والشبابيك والزوايا قد لا يشكل تبايناً كبيراً، أو شأناً ذا معنى، لكنَّ الأمر مع القرية مختلف جداً، حيث النخل ممدود في الافق، سابحٌ ولا يُحد، والأنهار لا تني تتشابك، تمتلئ بالماء والأسماك والأوراق اليابسة، مرتين في اليوم والليلة، والطرقات ظليلة، باردة، محفوفة بالأقمار وبالعشب الأخضر وبالأزل، وبترابها وأطيانها مادتي الخلود. وهذه الأرض، كل الأرض، عشرات ومئات الدوانم بأناسها الوادعين والمتصالحين أبداً، هؤلاء الواقفين على القناطر بدشاديشهم البيض، ومناجلهم التي منها الأهلة والصباحات، صحبة الليل

---

١. الشراسيف: الاضلاع

والنهار، مع الشموس وقبالة الرياح، وفي الوهاد، التي ظلت آمنة على غدها، مطمئنةً على اهلها بسلاحفها وأفاعيها وقنافذها وكلابها وحشراتها.. كل ذلك وأكثر هو ما أعنيه وأريد بقاءه وأحرص على تخليده.

جدير بمن لم يتخذ من نخلة متكأً له في ظهيرة قائظة ألا يخوض في فضل أهل المدر على أهل الوبر، ومن لم يتسمع وشوشة ماء الفجر في ساقية عطشى لن تصله حكمة النائمين قرب الأنهار، ومن لم تكن له مقبرة في قريته، وأودعها جثامين أهله وأجداده، في متوالية الحياة والموت لن يبلغ معنى تحول المقبرة الى مخزن لبيع الإطارات المستعملة. فلا لائمة هنا، ولا تزييف. الهواء والشمس والمطر والقوارب المهجورة على الشطآن كلها تحيا وتنبضُ وتفيض في الجسد القروي البليل. هي مصاحف من لا مصاحف بأيديهم، وهي ثياب من تعرت أرواحهم، وأردية من لم يحسنوا لفَّ أرديتهم في الليل. عن أي طائفية وعنصرية تتحدثون؟ كيف أقنعُ جدّي بأن سائق الجرّافة التي أزاحت قبره كان لطيفاً معه؟

ما لي، كلما قلت: يا مدينتي، إتُهمتُ بما أجهله ويجهل معانيه أبي وقومه؟ ولماذا أوصمُ بالتهم التي لم أحدّث نفسي بها في خلوة، "متهم حين أكشفُ عن جرحي؟ " بعبارة أدونيس. أهكذا يفعل الناسُ بالناس؟ من المعيب جداً التعجل في إطلاق الأحكام يا أدباء ويا شعراء ويا صحفيين، هناك قضية كبيرة، حقائق لا يمكن القفز عليها، ما يحدث في البصرة أكبر من أنحياز وتعصّب لطائفة، أكبر من تهم سخيفة جاهزة، إقرأوا ما يكتبه العامة في صفحاتهم ، فهم أصحاب القضية، ودعوا النخب فهي تجامل وتتعجل.

في الشـرفة وما ينبغي

لكي نقرأ قصـيدةً جميلة عن الحبِّ يستدعي الامرُ وجودَ امـرأة جميلـة. ولتحقيـق ذلك، يقتضي إيجادُ المكان اللائق. أجدُ أنَّ شـرفة الفندق أو البيـت التـي تطـلُّ عـلى البحر، أو التي تُشـرفُ على حديقة ما، ستكون المكان المناسب لوقوفِ المرأة، ولمرور الشاعر، أو توقفه للحظات، ومن ثم لتأمل الحياة، وهي تكتسب معنىً من معانيهـا، عبر أصـيص ورد، أو فنجان قهوة، أو كأس نبيذ. وإلا ما معنـى المـال الـذي أنفـق، والجهد الذي بُذلَ في بناء شـرفة مغلقة، يتدلى من سقفها فـانوس تراثـي مطفـأ، ولا تُستعملُ إلا لنشـر الملابس الداكنة؟

لم تدخل الشـرفةُ ابجدياتِ الهندسة المعمارية إلا متأخرة، ففكرة بناء البيوت كانت قائمة على اساس الحماية من الوحوش و عوامل الطبيعة(مطر ورياح وثلوج) أو مـن اللصوص والاعداء، لذا فهي طارئة، وبناؤها إضافة جمالية، لا أكثر ، وأيُّ استخدام سيءٍ هو إخراج لها من وظيفتها. في المنازل الصغيرة، أو في غرفات الفندق كثـيرا مـا يُختزل الاثاث الى طاولة صغيرة، وكرسيين أو ثلاثة، فالمكان ليس للإقامـة الطويلـة، هو اقتطاعٌ من فضاء عام، ولحظةٌ عائمة في الهلام، بين السماء والارض، لكنها تحتشدُ بالاكف، وهي تلوّح مستقبلةً، أو وهي تنفتحُ مودعة، ولا يزيدها الانتظـار إلا دعـةً وجمالا.

تُجهزُ ربّةُ البيت عـلى روح الشـرفةِ، حـين تنشـر عـلى دربزينهـا ثيـاب زوجهـا الداكنة، أو تركنُ زوج أحذيته خلف القضبان، أو تقسـرها على ما ليس فيهـا، كـأن

تجعلها مخزناً لقناني غاز الطبخ، لكنها ستضيف أناقةً وجمالاً باذخاً لها إذا عرفت كيف تنشر ثوب نومها، منزوع الردن عليها، أو توزّعُ ملابسها الداخلية في زواياها، وستكون أجمل إنْ خاتلت عين الشاعر في لعبة الظهور والتخفي، فوضع كلسون أبيض صغير قرب أصيص زهور الاوركيدا يمنح المشهد نضارةً، ويضفي على الشرفة معنىً مضافاً لوجودها، ولعلها تكون المكان الانسب لتناول فجان قهوة الحبيب، قبل ذهابه الى عمله، هناك، حيث سيكون جاهزاً لقبلة بطعم الحليب والشيكولاته، وبما يربك المهندس، الذي لم يكن ليضع في حسبانه غايةً كهذه.

قد يكون النهارُ أكثرَ الاوقاتِ تحفّظاً باستخدام الشرفة عند الأُسر، ذات الانضباط الديني، أو الخاضعة، بحكم العادة، لمعايير السكن المتقارب، كثير النوافذ، بافتراضات وجوب تقديم صورة عفاف تقليدية للجيران، مع استحالة وقوع ذلك، بفعل الحاجة الدائمة، والترداد المتقطع على الشرفة، إلا أنَّ الليلَ سيكون نقطة تحوّل في وظيفة الشرفة، فهي المكان المستثنى في تدرّج أهمية غرف البيت، واستعمالاتها، والذي تنتفي الحاجة فيه الى الحديث الجاد، مثل أولوية الديون، وعُطل الاجهزة الكهربائية، أو تربية الاولاد.. هذا مكان لإنقضاء الوقت، وتبديد الشجون، فالرجل سعيد بقدح عصير البرتقال فيه، والمراة تجد الحرية كاملةً في ما ترتدي هنا، بعد أنْ تعطّل فانوس الشرفة، بنحاسه العثماني، وحجبت الثيابُ الملونة أكثرَ من فضاء فيها. هل تعطلت القصيدة؟ لا، فالعين الشاعرة تسترق لحظات كهذه، وإن لم يقْدِمْ أحدٌ على إبدال الفانوس بمصباح النيون.

1

لا تكتب يا صديقي الشاعر عمّا فُجعت به بالأمس، إنسَ ما أنت عليه في اللحظة هذه. ولا بأس عليك، اخرج من غرفة المكتبة الضيّقة، بأرففها، وأتربتها، ودع عنك أصيص الاوركيدا الذي يوشك، يموت، حيث تجلس منذ الصباح، ثمة فسحة أكثر دعة في الحديقة، على النهر، حيث وطّنت جسدك منذ عقد ونصف قرن، لا تصغ لصوت بائع الخردوات، ولا لصخب العربات، بسائقيها القبحاء، لكنني أدعوك لاستحضار صوت ماكنة السقي، في الارض التي كانت واسعة لك، تلك الجلبة المحببة لقلبك، استحضرها في قيعة ماء، أو في زنبيل رطب، او في باقة بقدونس حتى، الاستحضار غير مكلف، هو أن تغمض عينيك لا أكثر.

أعلم، انَّ القصيدة التي شرعت بكتابتها قبل يومين أخفقتُ، وأنك نمت ليلتك حزينا وبلا نبيذ، وأعلم ماذا يعني اخفاق قصيدة عند شاعر، هل أقول بأنَّ الحرف الذي اخترته كان سيئاً، لكنني أذكر بأنني قلتُ لك إنَّ الفكرةَ عن الموت لا تنتج قصيدة جيدة، وإنَّ تأمل نسر في الفضاء يوهم الابطال على الارض، وإنَّ منقلبَ أشهر الربيع الاولى لا يسر الصيادين في البحر، وقلت لك مثل هذه وتلك الكثير. لو أنك قلت على سبيل المثال:" لستُ منهكاً ما فيه الكفاية لأتمددَ في أغنية/ أنا شجن قديم لا أكثر / ولستُ سعيداً بما يكفي لأقول تقريظاً في اليابسة/ أنا جذع شجرة يوشك أن ينهض/ كنتُ قد منحتُ النسورَ المهاجرةَ أغصاني ذات يوم / وعنّي أخذت السماءُ تقلبها في الفصول/ وهذا مديحُ للذين يمرون بي، أتلوهُ، لأنني أملك النهر هذا بذاكرته الماء، وبكل ما فيه من الموج.

في الامس أيضاً، حدث أن أخطأتُ، فأنكرتُ صداقتي مع امـرأة، إذ، وانـا أزوّلُ حروفاً على شاشة (اللابتوب المحتضن) كما يسـمّيه سـعدي يوسـف، ضـغطت زراً مبهماً، فأحدث هجراً، أو ما يشبه نسياناً بيننا، كان حجمُ رقعـة الازرار في اللابتـوب هائلاً جداً، هكذا، ودون دراية مني، قطعتُ وصلاً ، وبعـدتٌ سـماءٌ، كانـت لنـا. لا تؤتمن الآلة الحقيرة هذه على شيء، وفي مشقّة لم أدركها من قبل، حدث أن اتصلت بي مستعلمة عن سبب لذلك. قلتُ: لا، لم أفعل، هذه الآلة تفسد ما بيننا، وأنتِ تعشبين في القلب منذ ثلاثين عاماً. فدى عينيك كلّ شـركات الحواسيب في العالم، أبـرأ مـن أصابعي إن فعلت ذلك ثانيةً، من تراني كيما أضغط زراً يقطع وصلاً بك؟ هل كتبتُ غزلاً فيها؟ ما بيننا لا يُختـزل بقصـيدة، أو في كتـاب والله، نحـن سـلالة عاشـقين، جبلت من عناق وقبل وانتظارات، من سفر وحقائب ومحطات، من غضب وحنـين وشتائم، فلا تفلحُ أزرارُ الكون في تزويل قطيعة بيننا.

أعلم أنَّ القصـيدة أخفقت، ذلك لأنني لم أحسـن اختيـار حروفهـا ربـما، أو لأنَّ موضوعها كان عن الموت، لكنني، أعلمُ أيضاً بانَّ صوتَك المـنغّم الحبيـب، الـذي لم تظهر صورته على شاشة اللابتوب عبر المحيطات لي، وهو كفـايتي في لحظتـي هـذه، وزوادتي في يومي هذا، من عامي هذا، ألا يكفـي أنّ يبـدأ يـومُ امـرئ شـاعر مـثلي، بصوت عاتب، لامرأة لا أحصـي أسماءَها بين الفراشات.

2

نذهب للطبيب، ونتوسله وسيلة ما لعيش يوم آخر، وإذا يـئس منّـا تضـرعنا الى السماء، باحثين بين يديها عن أمل محتمل، وإذا عزَّ عليها ذلك، حملنا حقائبنا وسـرنا الى الاضـرحة البعيدة، بقبابها الصفر والزرق، نتوسلها رغَداً وطمأنينةً، وإن لم تنفعنا بشيء خرجنا الى الشارع، رافعين يافطات الاحتجاج، مطالبين بوضـع حـدٍّ لتلـوث البيئة، مع علمنا بعجز الجميع عن تسوية ما نعاني منه، هنـاك مـن يسـعى في داخلنـا لهدم كلِّ شيء، فهو يقف بمعوله الكبير، رافعا ذراعيـه، لا يأبـه بـما في صـدورنا مـن الشِّعر والألوان والكلمات والموسيقى، هو ماض لا يستوقفه أحد، شعاره أنْ لا شيء سيحدث بموت بائع الفشار الوحيد.

ولعله سيقول بأنَّ الارض ستظل تدور، وإن ضلَّ طريقـه سـائقُ بـاص المدرسـة الاخير، سيجد الصِّبْيَةُ الجادةَ الى مقاعدهم ثانية، وسيرتفع المدُّ كـما لم يكـن البارحـة نزراً، ولا شيء سيحدث أبداً، إذا ما سقط الثلج كثيفاً على الجبـل، ونفقـت الماشـية، وطال انتظار حارس الزريبة، ستشـرق الشـمس، وإن ظلـت حبيسـة الغـيم ثلاثـة أسابيع أخر، وكما لو لم يحدّثْ نفسهُ بشيء سيطلُّ القمر ثانية، ساخراً من تأففنا، ملقياً بقطعه الذهبية على صفحة الماء، إذْ كل ما في الوجود من حولنا دائرٌ في حلقة القُدوم والمُضيّ، الوصل والغياب، الوضوح والايهام، وما أضعناه هناك، سنعثر بـه هنـا، في طريق عودتنا من المتنزه، أو من مجلس العزاء، وفي ما نفرح به، ونبكي عليه، وبـذات العين والانف سنبصـر، ونشمُّ ما كان بين أيدينا بالامس، وما نبحث عنه اليوم.

كل ذهاب لا يغيّر شيئاً، وكل إيّاب كذلك. سياتي من يطرق بابَ الأسئلة الكبرىٰ، الباب الذي أغلقه الحارس الكبير، وستعزُّ الاجابة عليه، الاجابة البسيطة تلك سيبتلعها كهف مظلم، لذا، سيجد أحدهم المطرقة، لكسر القفل، وسيصطدم مثل نيزك جديد بمحيط الارض، فيوقف، وللحظة واحدة لا أكثر الرَّجَّة الكبرىٰ تلك، لكن، مثلما أعاد البنّاءُ الكهلُ أعمدة محطة القطار، قبل مئة سنة، سياتي بنّاء أخير أيضا، يوسع من محيط القبّة، طمعاً بمزيد من التركواز والنجوم، وسيعيدها، كما لو لم تسقط آجرّةٌ واحدةٌ منها. كلُّ نفوق لن يكون الاخير. هذه النسمة الباردة التي تخطف روحك، لن تكون الأخيرة، ومثلها الخطوات هذه، التي أنفقها الميت الى المقبرة، لن تكون الأخيرة ايضاً.

هناك من سيعمل علىٰ دوران تروس ماكنة الضوء التي توقفت، وهناك من يزرق الحقنة الأخيرة في جسدك الذي سيجمد بعد قليل، فمنطق اللامعنىٰ باق، وهذا العبث الكوني هو قانون الوجود الاخير، أنا باق لانني سازول، لكن، أنظرُ ، كما لو أنها بمعانٍ لا تعدُّ تبحثُ يدي عن عذرٍ لعناقك.

أصطفي من الريح قصبةً وأجيء

الريحُ شرقيةٌ في تشرين الاول، والبحر حلمٌ هائج في الروح. ياتي بالسمك النيئ الى العتبة، ثم يعود بالسمك المالح الى الماء، ثانيةً. يأتي ويعود.. ياه، ما بالُ شعرك تجعّد هكذا؟ ما بال يدك تنزلق في كفي فلا تمسك بي؟ ما بال القواقع تنسرحُ على كتفيك وتمضي؟ أحدهم ترك قميصه يافطةً على السفينة، ومضى الى ليله حالماً، هذا الخشب بزيت كبد الحوت، وبزفرة الروبيان والهوامير المدماة، والبحّارة بصريّون صخّابون، فأينكَ؟

جُماع خطوي كانت معكَ، وجُماع موجك كان معي، منذ نصف قرن ويزيد، ونحن نسير جنبا الى جنب، نتبادل الرضا والغضب، الشجر والبلابل والتراب والمقاعد الرخيصة. أنت الخطوة الاولى من الماء، وانا اليابسة تنتهي، عند تمثال السيّاب الشاعر، لكنني لا اشعر بك. شط العرب، صديقي، منذ سنة لم تحملني قدماي اليك، اتيتك البارحة، كان الليل في اوله، والسفن الراسية على شاطئيك اكثر من المبحرة فيه. لا، لم تكن الريحُ باردةً، كما يظنُّ البعض، هي بزفرة اقل، وباعة المرطبات يتخذون الرصيف مغازةً، البلدية تغضُّ طرفها، ولا يعيرُ أحدٌ ذراعه لمهزوم هنا، لكن رائحةً ماءٍ غادر تشي بغير ذلك. ما أنا بالبرم الحزين، لكنّ، تسوؤني رسمة الشرطيّ، يرفع يده محيياً، ولا أجد معنىً في العبارة القاتلة، التي على جدار المؤسسة الدينية، لذا، لست احمق لسؤال احدهم.

زورق اكاديمية البحار في مكانه، والحبل ذاته، ما زال في عروة المرسى، ثلاثة قوارب صغيرة الجأها الموج الى بدنه، فهي هامدة اليه، نائمة فيه، ولا احد من بحّارته يُرى في القريب، الماء مخطوط ضوء، وعامل المطعم يسوّي دكانته، يعيد ترتيب اسياخ اللحم على الموقد، وهذا بائع كتب النسيان يدعوني، لقراءة السطر الاخير. وفي جوف المصطبة هناك، من راح يحدثني عن ساحة عبد الكريم قاسم، وعن رسوم شبان خرجوا من الاحياء الفقيرة، أنبتها أقرانٌ لهم، هتفوا طويلاً ضد حياتهم، التي باتت بلا معنى، قبل أن يطيش حولهم الرصاص.

لم تنتشل ادارة الميناء السفن الغريقة منذ اربعين سنة، لذا ظلت الحرب عالقة باذهان المارة، الذين تناوبوا الذهاب والاياب، من الضفة هذه الى تلك. ومع ان البلدية انشأت، ومن الحديد جسراً جديداً، إلا أنَّ العابرين ما زالوا يفضلون جسرهم الخشب، شيء من رطوبة وزنخ في مماشيه، تحرّضهم على الثورة. ولهذا، لا يتقي صيادو السمك الشمس اول الفجر، لكنهم يقيمون مظلاتهم على البدن النديّ، ومما لا تدخره المسافات يتخذون الطريق اليه.

سمك وصنارات وافواه قطط الى جوارهم، وعلى كل قصبة عصفور آمن. لكن العلب الطافية تُفسد المشهد. لم انتق من حبال المرسى مشنقةً للبقاء، ولم تمنحني لحظةُ كمالها اغنيةً عن المنفى. هذا الساحل القصير سيقودني الى البيت، انا لا احلم بسلة الورد على الطاولة، ولا افتش في يدي عن قصبة تدلّني الى السرير، هناك رسمٌ امراة من الجنوب، وشجرة حنّاء وظلال، تضيئ كتفَها نجمةٌ بيضاء، ستظل واجمةً على العتبة، تطلُّ برأسها عالياً ، كلما شقّت طلقةٌ ثوبَ السماء، أنا خارج وعائد منذ نصف قرن ويزيد.

يقول صاحب لي: انتَ ادنى الى الحائط الآن، وشرقُك ادنى اليك من الماء والشمس، فما لك ، كلما جئتك حالماً أنبتَّ رايةً مدماة؟ فأقول: كلُّ شرق قريب من نهريَ قاتل. وحجراً حجراً شجرةً شجرةً يقضم الموتُ الطريقَ التي يسلكها الموجُ. لقد أرخى المؤازرون حبال القارب الذي سياخذنا الى الجزيرة اليابسة. وحدها السماءُ ستتقلبُ في الحجارةَ، التي تركنا امالنا عندها، أيها النهر، يا أخي: ستصطفي الريحُ القصبةَ التي ترافقك الى هناك.

حديث من تجاوز الستينَ بخمس

سأذهب بعيداً، في أوهامي التي لا يدركها إلا من تجاوز الستين بخمس، ولا يتحسسها إلا من كان له أبٌ مقعدٌ، سأعيدني الى الايام التي كنت فيها ممرضاً لأبي، قبل أكثر من أربعين عاماً فها أنا عند وسادته القطن، وهو ممدَّدٌ على فراشه، في بيتنا الطيني القديم، حيث لم تكن رائحة فراشه طيبة، وحيث النور ضئيل، يأتي من السقف ذي الاعمدة الصندل والقصب، وأقول:" هل ساءته رائحة قميصي حين مررت به"؟ لا، مستحيل، أبداً، فأنا ما زلت لما أبلغ المرتبة تلك، أنا قويٌّ بذراعين يرهقان النخل، يعظّمان من شان الجداول النائية والظلال، لذا، سأظلُّ انفي عن نفسي تهمة النوم الطويل في السرير، فما زلت استبق الشمس فجر كل يوم، أعيدُ ترتيب الزهر على النافذة، اسقي عطاشى الفسائل، وأدفع بنفسي- قوياً، صُلباً تجاه أبعد قيعةٍ في الأرض، أنا مشبَّع حدَّ الحياة بروائح الزهر والشمس والصباحات.

لن امنح جسدي العظمة كلَّها، فهذا مما لا يصدِّقه أحدٌ، لكنَّ قوتي ستتضاعف في الغد، سأذهب للمرآة واثقاً، عندي شفرة حلاقة جديدة، وسأستمتع برائحة ماء القولونيا بعدها، ومعطِّر الجسم، بعد الحمام، أحبُّ شعر رأسي، رمادياً، ما زال كثيفاً، ساستعمل مجفف الشعر، كي لا أصاب بالزكام، هذا يوم شتوي جميل، ساختار بذلتي النيلية، كان (جاكسون بروان) قد اوصى ابنه بشراء بذلة زرقاء، ضمن جملة الوصايا الـ ١٥٠٠ التي كتبها له، ومثله سأطلب من ابني أن يلتقط صورة جديدة لي، شريطة ان تكون بكاميرا هاتفي الجديد(آيفون سكس بلاس) الذي لولا أن

تضافرت نقود أبنائي لما استطعت اليه سبيلاً -يوصي (براون) أبنه بان يلتقط له صورة أو صورتين في العام. هناك شيءٌ ما يتحرك في الروح.

منذ أعوام ليست بعيدة وأنا أحرص على الاحتفال بالاعياد، رأس السنة الميلادية، ميلاد اولادي الثمانية، ومن ثم الاحفاد والاسباط، النوروز، عيدي الفطر والاضحى، وأحرص على جعل مؤشر التلفزيون على المحطات الغنائية، وإذا ما اهداني احدهم أغنية نادرة فأنا أشيعها في البيت، انا على خلاف مع الماغوط، الذي يقول: الفرح ليست مهنتي. أبداً، فأنا مخلوق يقارع الجفاء بحقل من الفراشات، ويحطُّ من الضجر بابتسامة هازئة، ولا يريد لهذا العالم النكوص، فقد كان الجهد الانساني باهرا وعظيماً، كانت القوة الايجابية التي أطلقها العراقي الأول في السهول الرافيدينة، وداخل اسوار اوروك خلاقة. أنا انتمي لذبالة النور تلك. للأضلع التي اصطكت على المباهج. كان لزجاجة عطرك التي اهديتنيها يا (علي) معنى لا يدركه إلا من تجاوز الستين بخمس.

خمس حكايات من ابي الخصيب

1

يسمّي فلّاحو أبي الخصيب ما يتقاضونه عن سبعة أيام من عملهم في (عَمَار) فلاحة البساتين بالأسبوعيّة، وهم يقصدون الورقة النقدية من فئة الدينار، الملكي أو الجمهوري، الدينار الذي يتكفل معيشتهم مدة اسبوع كامل، فإذا قال لك أحدُهم بأنه عاش على أسبوع العَمَار، فهو يقصد بان تكلفة المعيشة للأسبوع كانت ديناراً واحداً. وهم يطلقون على كل ثلاثة يعْمِرون (يفلحون) سويّة كلمة(الدِّركال)- بلام أخيرية ثقيلة- وهؤلاء الثلاثة تصطف مساحيهم سوية ويعمرون في نسق واتساق لكي تستوى الأرض، فلا ترى فيها عوجاً ولا أمتا، ومجموع ما يرفعونه بمساحيهم من التراب يطلقون عليه (شِلّه) جمعها (شِلّ) ويسمّون الرجل العَمّار الذي على اليمين بالدِّهدَار، وتعني زعيم المجموعة، الذي يتحكم في موضع وقوع الشلّه، والذي يليه الوسطاني،أما الثالث فيسمى باللايح، واللايح هو الأقل خبرة في الدِّركال. ولأن النهار قصير في الشتاء يتوجب عليهم الخروج بعد أذان الفجر، امّا الذي يأخذه النوم من تعب وحاجة وإحساس بنعومة ودفء الفراش فيترك صلاته لفجر اليوم الثاني. كان الله كفيلاً بحياة أولئك، الذين يتأخرون عن صلاتهم فجراً. كانت الحياة لا تكلف أكثر من دينار.كانت الصلاة بسيطة لا تؤدي بالمتأخر عن أدائها الى النار.

عبر لغة متراكمة من تعب وخضـرة وجداول وانهار يشتق الخصـيبيون من مفردة الدِّهدار فعلاً، فيقولون كان فـلانٌ يدهـدرُ لفـلان وفـلان، وهـو يقـول عـن نفسـه دهدرتُ لهم في كاع فلان، ويعني انه على مُقام رفيع، وقيمةٍ ودرجةٍ عاليـة عنـد مـن حضـر، لذا فهو بمنزلة ربّان السفينة(النوخذة) في البحر، لأنه المسئول الوحيد أمـام ربِّ العمل(الملّاك)عن جودة وصلاح العَمار، بما فيه عُمق (البِّيس)-والبِّـيس يعنـي مقدار عمق غرزة المسحاة- وتسوية الأرض، لفَّ وشدَّ حاشية الأنهر وقـط عـروق النخيل وما إلى ذلك، وحين يجلس احدُنا إلى جماعة من العمّارة في الأرض القريبة من الماء ستدهشه ألفاظٌ ومفرداتٌ وتسمياتٌ لا تنفك تحل لغز حياة متشابكة، وها نحن نحاول فك ما يُعجِم علينا من أحاديثهم.

يشترطُ بعض الملّاكين على الدِّهدار وجماعتِه نوعـاً مضـنياً مـن العَـمَار إذا كانـت أرضه خراباً وبوراً، صلبة، كثيرة الحلفاء والثيل والمُرّان وما شابهها من انواع الدغل، بسبب تركها لسنوات دونما عمار، ولكي يجعل من أرضه عماراً بعد خـراب يتوجـب عليه اختيار أنجع انواع العَمار، وهو ما يطلقون عليه عمار الـ (بـيس وردّة) والبـيس إدخال حديدة المسحاة كاملة في الأرض، والرَّدَّة معاودة الإدخال لكـن بعمـق أقـل من الأولى، حيث أن الدركال (مجموعة الثلاثة) وبعـد كـل قلـب لـلأرض بواسـطة المسحاة المشتركة، يعودون ثانية ليعمروا في الموقع ذاته بنصف الجهـد الأول، بمعنـى أنهم يعودون لعمار الموضع مرتين، مرة بجهد كامل وثانيـة بنصـف الجهـد، وبـذلك إرهاق وتعب في البدن، وتأخير في المتحقق من مساحة الأرض المعمورة. يمكننـا تقريب معنى البيس من خلال كلام العامة إذ حين يقول أحدهم (بيّس بيه، وبيّسـتُ بيه)أي أوجعته ضـرباً.

وهناك ضروب أخر من الأبياس(جمع بيس)غير(البيس وردّة) هو بيس قايم (قائم) وهو الذي تكون المسحاة فيه قائمة غير مائلة، لتنغرس أعمق، إذْ أنها كلما غاصت في التراب أكثر كانت أنفع وأصلح للزراعة، لأنها تقتلع عروق الدغل من آصالها وتمنع نموها ثانية، وضرب ثالث من البيس يسمّونه(بيس ونكشه) من النقش، أو النكز، وهي أن يقوم العمّار او العَمّارة بنكز الشلّة نكزاً خفيفاً بما يفتتها ويكشف عن الدغل فيها، وهي عملية لا تكلف الجهد كما في البيس والردّة.أما أبسط ضروب العَمار فهي (الثيارة) التي منها قوله تعالىٰ: "قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ.." وهي إثارة ونثر التراب وتسويته بما يجعل البستان جاهزاً للتفصال والزراعة.

والتفصال هو شق الأرض علىٰ شكل مشاريب- مفردها مشروب- او مشاير- مفردها مشارة- تبعاً لنوع المحصول الذي سيزرع فيه، فإن أراد زراعتها بالطماطم او الخيار أو الباذنجان وسواها عمل لها المشاريب وإن كانت غير ذلك مثل الجت او الشعير او الخضروات مثل الكرفس والفجل والكراث والنعناع جعلها مشاير. ثم بيّن لنا أحدهم بأن المشروب هو شقٌّ طوليٌّ في الارض المعمورة، يختلف عمقه تبعا لما سيزرع فيه، والمشارة قطعة من الأرض تختلف مساحتها باختلاف ما سيزرع فيها أيضاً مسوّرة بحاشية من التراب بارتفاع شبر، تمنع خروج الماء كيما يأخذ الزرع حاجته منه.

نعترفُ بان افعالاً كثيرة من التي يقوم بها اهل أبي الخصيب لا يمكن حصرها في تعريف ما، هي محاولة لتقريب معاني الأفعال المضنية تلك، لأن اللغة بما فيها من سعة قاصرة عن سبر ما تراكم لدىٰ هؤلاء من أنشطة، نحن ندخل الكوخ أو الصريفة، وسط غابة النخل، علىٰ الترعة هذه وتلك، سيدخل علينا من ترك

مسحاته مائلة على خص السعف وأهمل يشماغه يتدلى على حاجبه، سيقول لنا : السلام عليكم وسنقول له وعليكم السلام. لكنه حين يانس بنا سيقول كلمات كثيرة، ربما أكثر مما بينّا، عن العمار والجريان(بجيم اعجمية) عن الفراوند والمناجل والعكافي وكثير مما تشاكل وتشابه علينا، تلك التي تركها في اكواخ وصرائف أجداده.

2

بعد كلِّ أوبة للبيت يجد عباس الراضي أنَّ زوجته طبخت له المرق بالباميا مع الخبز، يسميّه (تليت) هو يتجنب قول (ثريد) لأنَّ اللثغة بالراء في لسانه تزيده تطرفاً في عصبيته.تكرر المشهد طوال فصل الصيف، فهي لا تجد ما تأدم خبزه إلا بما يغرسه، حتى باتت رائحة مرق الباميا دالته الى بيته، في الليالي الحالكات المظلمات. ولما دخل الشتاء عليهما السنة تلك، راحت تفك قلائد الباميا المجففة من تشابك خيوطها، وتطبخها له. بلغ حنقه حدَّه، فهو يسمع عن السمك في السوق وفي الشط القريب، لكنه لم يذقه من سنة ، ويشمُّ رائحة اللحم في بيت جيرانه، لكنه لا يراه، وتتشرب الطعوم والروائح في مسامات جسده، لكنه ظلَّ يصارع كراهيته للباميا. في خريفه الماضي، وفيما كان عائداً من عمل مرهق، في بساتين بعيد، سأل خديجة ما إذا كان أحدهم، وبمناسبة العاشوراء، قد أهدى لهم شيئاً من رزٍّ ولحم. أجابته أنْ بلى: لقد جاءوا لنا برز ولحم مع مرق باميا، وقبل أن تكمل جملتها صاح بها حانقاً: هم باميا؟ الله أكبر. ولأول مرة دوّى حرف الراء الملثوغ في أودية البيت وأثاثه،

ودون أن يبالي بعواقب ذلك، حمل منجله الى حقل الباميا، الذي غرسه قبل شهر، وأتى عليى كلِّ ما غرس وقارب الجني.

3

في العام ١٩١٦ شَهِدَ عثمانُ مع والده الشيخ حسين دخول الجيش البريطاني البصرة، وحين دكت المدفعية مخزن الفحم الحجري، خلف قبّة عبد الله بن علي، والذي ظلَّ يزود سفن الحربية التركية بالوقود، حتى نهاية آذار، لم يستطع أن يلحق بوالده، الذي عبر جسر مناوي باشا مسرعاً الى الخورة، حيث لم يكن ليتجاوز سنيّه العشر بشهر أو شهرين.

في شتاء العام ١٩٨٥ بلغ عمرُ الحربِ مع إيران خمس سنوات، وفي معركة شرق البصرة التي لم تكن الاخيرة، لم تتمكن عجلاتُ مدافع الايرانيين من الخروج الى اليابسة، ظلت اسيرة أنهار الشلامجة والبوارين والخرنوبية الكثيرة هناك، فشاخت في الوحول، قبل أن تبلغ المدافع أهدافها، ومثل من يقطع أرجل أبي الاربعة والاربعين، انحلت عُقدُ سرفاتِ الدبابات، واحدة بعد الاخرى. لكنَّ، في شتاء العام ١٩٨٦ طالت فوهات مدافعهم أكثر مما يجب، حتى انها بلغت قرية نهر خوز، التي على شط العرب.

في السنة هذه، سيكون الحاج عثمان قد بلغ خمساً وثمانين سنة وأربعة اشهر. وفيما كان متمدداً على سريره ذات يوم، أمر ابنه بغرس فسيل القنطار، الذي فطمه عن

أمّه أمس، قال لعلَّ العمر يُدركنا فنأكل منه. يقول حفيدُه إبراهيم: أجلسني جدّي على ضفة نهرٍ منبتر، وهو يضفرُ وشيعةَ خوص، فتكونُ حبلاً، وحين سألته عن سنوات إثمار الفسائل أعلمني بأنَّ فسيلَ القنطار مئخارٌ، لا يأتي ثمره إلا بعد عشرة أعوام بلياليها ونهاراتها. انتهت الحربُ، وعلى ضفة النهر ذاك، أتيت جدي بقوّصرة من ثمره، فأكل، ولم يبلغ جدّي المئة إذاك بعد.

4

قلتُ له: اتركها يا حاج، لا تصعدها. هي مما تركناه من سنوات ثلاث، فقد طالت، وشاخت، ومال رأسُها، وغرسنا تحتها فسيلا، هو اليوم نخلة تثمر، فما حاجتنا بعيطاء هرمة، عوجاء ، والنخل كثير. فقال: لا، البركة في الطوال، فهنَّ الاقرب الى السماء، المجابُ تحتهنَّ الدعاء!! فعجبتُ من تأنيثه للنخلة، ثم أنه لفَّ فرونده عليها، وفي لحيظات صار في قُلّبتِها، فهو يقذف بالكرانيف، ويطيح بالليف والكرب، فيكشف من علوّه هناك عن سماء زرقاء مشمسة، وهكذا راح يُسقط ما يبس وجفَّ من القِنوان والعراجين والشماريخ الميتة، في السنوات الثلاث الماضيات.

الحاج محمد لا يقسم بالله أبداً، ولا بنبيٍّ مرسل، ولا بضريح وليٍّ مقصود، أو مهمل، فحديثه اليقين كله، والدال على قوله وفعله. لا يأخذه بالوفاء طمع في مال، ولا ينصرف بكله الى طعام أو شراب. دابّته الى المسجد قدماه، وقيلولته على النهر، وفي يشماغه تغفو اسراب العصافير. يترفق بالحلفاء إذا أسرع الى أحدنا، ويميل

برأسه عند كل سعفة، لم يربِّ بلبلاً في قفص، ولم يُسقط نخلةً، ما بلغت في السماء، ولا يتعقب ثعلباً، ولا يجري وراء أفعى، وحين أتى بمنجله، من غفلة، على غصين توت صغير، سمعته يبكي. في تدافع الخلق على اشيائهم، هناك من ما زلنا بحاجة الى الاحتماء بقلبه.

5

بيديك المرتجفتين أصلحتَ شبكة السَّقي يا قاسم، أكملتَ الماء المتدفق تحكماً وصيرورةً، فسال اودية وشِعابا، ها قد اعدت للتوت آماله ومباهجة، وللنخل ماضيه في الرفقة والقبول، ومن ساقية الى أخرى رحت تنقل ماسكة الانابيب ووصلات الربط، ومُطْلِعةَ الاسنان عليها. تقطعُ وتحفرُ وتشدُّ وتربط، ما أنت بسبّاك يعمل في البيوت، يبحث أحياناً عن غواية بين النساء، ولا أنت عامل في شركة للنفط، التي أكملتَ دراستك في معهدها، كيما تكون موظفاً فيها، انت خارج ذلك كله، فقد شنّعت على نفسك الانتماء الى حزب السطلة، آنذاك، وهكذا رفضت الوظائف المدافة بدنانير الذل، وبقيت تصلح مكائن السقي في بساتين ابي الخصيب، يعصفر الزمنُ قميصك وسروالك، ويخضّب الزيتُ المحترق أصابعك وعلبة سجائرك وآماد يومك، حتى طبت مقيماً ساكنا، فأنست النخل والانهار على شُحّها، انطبقتْ أخصاصُ السعف والقصب عليك، وآختك السواقي، صرت بعضها أو بعض من عليها، لذا أطلت المُكث هناك، فلا أتذكرك إلا محدوداً، ولا التقيك إلا متأملاً، ولا أودّعك إلا لكي التقيك.. فيا قاسم، يا مصلِّحَ ماكنات السقي بأبي الخصيب: خذْ الـ ١٠ آلاف دينار ثمن صنيعك لي.

خذها، فأنا مُوسر والله، عندي من النخل مئة ومئين، ومن الطابوق ما لا يحصىٰ ويُعدُّ، ومن الشبابيك المشرعة علىٰ المشرق والمغرب ما يكفيني، ومن الريح والاترج والجلنار، ومن الثياب ما يستر جسدي ويزيد، وراتبي في التقاعد تجاوز الـ ٥٠٠ الف دينار، أما أنت فما عندك ينقصُ ويفنىٰ، أحالوك علىٰ التقاعد، وما زلت تحلمُ بالدراهم الخضر، توسعها انتظاراً، وكلما عبرت بدراجتك الهوائية ناحيتي تحسستُ حاجتك الىٰ الطماطم والبصل والفاكهة والخضار، وكلما أذلني بائع الليمون في دكانته تذكرتك، وكلما أنذرتني السماء برعودها ومطرها تذكرتُ بيتك الطين، وكلما ارتدتْ زوجتي قميصاً للنوم أحمر تذكرتُ أنك بلا صاحبة في الفراش، وبلا كيس محارم علىٰ الطاولة، فمالك لا تقاسمني محنة ما أنا فيه من السعة والدِّعة ياقاسم. خذ الـ ١٠ عشرة آلاف دينار، أرجوك، ودعني أخلد للنوم، فهذا وقت لإكرام الخمرة، وقت لإيفاء الكؤوس حقّها، وقتٌ لتبديد ما لا تبدده فاختةٌ بين النخل والانهار.

يصلي قاسمٌ الخمسَ في بيته، فهو لا يدخلُ المسجد إلا لتعزية، ولا يخالط أحداً إلا من يأتمنه علىٰ بغضاء السياسة والساسة والمرابين، يعرف عن حروب الجَمل وصفين والنهروان أكثر مما يعرفه الطبريُّ، ويمتدح الشيوعية امامي فيستدرك قائلاً : (لا، لأنني أحضر مجلسك) إنما لأنه يعرف عن كارل ماركس اكثر مما يعرفه عضو عتيد في محلية البصرة. تذكرته أمسِ، فأرسلت له بعضاً من أرقام لهواتف محسنين، هي مما يتداولها الناس علىٰ الصفحات الزرق، اعلنوا عن مستطاعهم في تقديم المال والاطعمة، لمن ظلَّ في بيته خشية الوباء، الذي استفحل بالبصرة الاسبوعَ الماضي، وقد آثرته علىٰ كثيرين محتاجين حولي، فلم يجبني بنعم او لا !! تركني في حيرتي ومضىٰ الىٰ حيرته.. يا قاسم، يا مصلح ماكنات السقي في ابي الخصيب خذ الـ ١٠ عشرة آلاف دينار أرجوك خذها وإلا شكوتك الىٰ الله.

أنا وعبّاس و مالك بن دينار

الرغيف شعير، والبيض بالطماطم والبقدونس، وإبريق الشاي خزف أبيض، وعلى الطاولة الخشب قفّازان من الجلد الصناعي، ومنجل، ومقصٌّ تقليم الاشجار ، صحت به: (فَلَاحٌ)وهي عبارة يُنادى بها على الفلاحين، منذ أيام ابي الخصيب، لتناول وجبة الضحى، التي يعدّها صاحبُ الارض للعاملين في بستانه، فضحك عبّاس- الرجل الذي اكتريته للعمل - لكأنني، أذكّره كل يوم بالعبارة الاثيرة لروحه، فأستحضر وإياه غابر الايام، التي كانت لأهلينا هنا، في الارض، التي تبدأُ بالبراضعية ولا تنتهي بباب سليمان وراس البيشة.

مرّت نسمة شمالية زرقاء باردة، فانتفض قطٌّ، لم يشأ عبور السياج الى البيت، ظلَّ، بمشيئته وحيدَ الحديقة الصغيرة، نحن في كانون الثاني، وقد حبست السماءُ غيثها، كنت أطلت النظر بوجه عبّاس، وهو يتناول وجبته، التي أعددتُها له بنفسي، فتذكرتُ ما قاله مالك بن دينار ، حين دخل المسجد فوجد الناس قد اجتمعوا، يدعون الله من صلاة الظهر الى صلاة العشاء، لم يغادروا المسجد، فقال لهم :ما بالكم؟ فقالوا: أمسكت السماءُ ماءَها، وجفّت الانهار، ونحن ندعوا الله أن يسقينا، فدخلتُ معهم، يصلّون الظهر ويدعون، والعصر ويدعون، والمغرب ويدعون، والعشاء ويدعون.. ولا تنزل من السماء قطرة.

غادر الناس المسجدَ ولم يُستجبْ لهم. فدخل رجل اسود، افطس، أبجر، عليه خرقتان، ستر عورته بواحدة، وجعل الاخرى على عاتقه، فصلّى ركعتين، ولم يطل،

ثم أنه التفت يمينا وشمالاً فلم يرَني، فرفع كفّيه الى القبلة وقال: الهي وسيدي ومولاي. حبستَ القطر عن بلادك لتؤدب عبادك، فأسألك يا حليماً ذا اناه، يا من لا يعرف خلقه عنه إلا الجود، أنْ تسْقِهم الساعة الساعة الساعة. فما أن وضع يديه إلا وقد أظلمت السماءُ، وجاءت السحبُ من كل مكان فأمطرت كأفواه القِرب. يقول مالك فعجبتُ من الرجل، ولما خرج تبعته، وظل يسير بين الازقة والدروب حتى دخل داراً خربةً هفما وجدتُ شيئاً أعلّمُ به الدار إلا الطين، فأخذت منها وجعلت على الباب علامة.

والحكاية طويلة، فالرجل عبد مملوك لأحدهم، إلا أنَّ مالكاً ذهب في اليوم الثاني الى بيته، يطلبه لخدمته من صاحبه، فينصحه الأخير بألا يشتريه، لأنه نحيل وضئيل ولا يحسن صنعةً ولعلك ستقول: غشني إن بعتك إياه.. يقول مالك: لّما جئت به البيت سألته عن الذي فعله، فامتنع ان يكون هو، ولما الحفتُ في معرفتي قال: أعرفتني؟ فقلتُ: نعم. فقال: أتيقنتني؟ فقلت: نعم. يقول مالك: فوالله، ما التفت اليَّ بعدها، إنما خرَّ ساجداً، وأطال السجود، فانحنيت عليه اتفحصه، ثم أنني سمعته يقول: (يا صاحب السر إنَّ السر قد ظهرا.. فلا أطيق حياةً بعدما اشتهرا) ففاضت روحه من ساعتها.

أسمعتُ (عبّاس) شيئاً من الحكاية لكنها استغلقت عليه، ثم أنني سخرت من جهلي في حكايتها، وكما لو أنني لم أحدثه بشيء، أكمل فطوره، وقام الى ساقية فاجرى الماء فيها، وأتى بمنجله اعلى أجمة القصب والحلفاء التي كانت تطبق على النخلة، وانحنى على فسيل يقلبه حيث كنت انظر، وأتامله وهو يهب الارض فتوته وشغفه، واستحضر الرجل الذي فاضت روحه عند مالك بن دينار، في القيعة هناك، قبل ألف سنة، حيث حبست السماء قطرها عن اهل البصرة.

الصيحة المدوية في النخل الى اليوم

مكلِّفٌ هذا التلّفت، ويا له من شقاء، هذا الذي لا تعرف فيه ماذا يريد منك غريمُك، وكم ثقيلة هذه النظرة التي تتلقاها منه كل يوم. باهض جداً والله، ثمن ما تضمره لي، ويغضبني هذا الذي يوغر صدرك، أوقفتني بين يقينك ويقينك ثم طالبتني بما تريده مني، أين أنا منك؟ وقد اخذت الحجر والمذر اليك، وتركتني في سبخة ما لا أريده لك ولي، أنت تنزع جلد المعنى، وانا أرمم القول بما يناسبك، ذلك لأنني حدُّ الدم، ولأنك حدُّ السيف.

أختلف عنك فأنا رجل مسكون بالحياة. أعانني الشعر على قتل الوحش الذي في صدري. عندي روح ترتعدُ فرحاً امام مشاهد الصدق والنبل والحب والرقة والعذوبة... وفي قلبي موضع لا تدرك معانيه إلا الملائكة، التي لم تخلق إلا للنور، ولا أقول شعراً، لكنني، لا أمسك دموعي في مشهد عصفورين متحابّين على سعفة. وساذهب أبعد من ذلك لأقول: لطاما اجتنبت رشَّ الماء في امكنة اتخذها النمل مسارب لنقل مؤونته في غرفة النوم، فانا لا أطيق تخريب مساكن المخلوقات الضعيفة هذه، ولطالما اعترفت بظلمي للحشرات الصغيرة، ذات الابر الصماء، وانا اجمع العسل من خلايا النحل التي ربيتها، ومنحتها من جهدي ومالي الخاص الماءَ والسُّكرَ والرفقة والطعوم، هناك شيء من صحبة مع الاشياء هذه، ويؤذيني أنني أستعملها طامعا ومتصالحاً، المخلوقات البائسة هذه ترينى صلفاً وعنجهية في روحي، هناك ضميرٌ خفيٌّ يمنعني من التجاوز على ما هو حقٌّ وتقليدي في الحياة. فأنا لا أجرؤ على قطع سعفة تضايقني في نخلة، علّتي في ذلك أنها ربما كانت مأوى

لفاختة، او أنَّها صلُحت موضعاً لقدم بلبل غريب، لا اتحدث شعراً، ابداً، لكنني مخلوق حزين في تعامله مع الاشياء الضعيفة، في عالم يتحققُ بأساً وقوةً ونذالة.

أشفق على الذين يتوقفون طويلاً عند القضايا الانسانية الكبيرة، على عظمتها، ويغمضون اعينهم عن آلاف القضايا والمواقف النبيلة، التي صنعها اناس عاديون، لكنها عصفت بالضمير الانساني. مع يقينهم بان العدل والظلم لا يتجزآن. أمضى أحدهم، رحمه الله، حياته فلاحاً في أحدى قرى ابي الخصيب النائية، يحرث ويغرس ويجني، وحيداً في غابة من النخل شائكة، تزوج قبل ثلاثين سنة، لكنه ظلَّ بلا عقب، ولما أصابه الفالج صار يُفلح الارض، مستعيناً بعكّازه، يستقيم مرة، ويسقط أخرى، ترفعه راية الامل وينوء براية خساراته مرات ومرات، وفي لحظة انسانية صادقة صاح بشبيهه في الحرمان والجوع، معينه الارضي، وهو فلّاحَ هبَّ لنجدته صيحته التي دوّت، وما زالت مدوية في النخل:" أصعدْ له، لا تتركه ينساك، خذ من غضبك ويأسك وقوتك ونحولك وكل ما بين يديك من العدل والظلم إليه سلّماً واصعد له، قل له أن يمنحك من ولده وغلمانه واحداً، واحداً لا غير، لئلا تكون كما تراني عليه".

خلف الصيحة المدوية هذه، ما لايحصى من الظلم والالم والفقد والنسيان، ومثل الاصغاء الذي توقّف عنده شبيهه ما لا يمكن تصوره من السلالم العاطلة، التي لم يبلغ أصحابها بها السموات، ومثل جيف مكتوبة على تلال مهجورة تفسخت صيحات كثيرين، في فضاءات وازمنة لم يرصدها أحدٌ، ولم يسمعها ربٌّ لهم، لكنهم، ما زالوا الى اليوم، يكررون صيحاتهم، بذات الحناجر المبحوحة، بذات الوجوه الشاحبة المطلية بالحاجة والجوع والندم... الصيحات اليائسة تلك ظلَّ النخل يفرّقها في الريح، تبتلعها غربان سود، وتتناوب الانهار على إغراقها في الانهار.

أحلامنا التي لا تولد ثانيةً

لا أعرف بالضبط كم عدد السنوات التي تمر على واقعة ما لكي تنضج في حلم، هم يقولون بأنَّ سنوات خمس أو ست، هي مجموع الوقت الذي يمضيه الانسان في الاحلام. لكنّ، ويبدو أن تأثيث الحلم يتم بمادة الماضي دائماً، لهذا، أنا، ومنذ عقد ونصف في بيتنا الثاني، لم يحدث أن رأيتُه في أحد أحلامي. كل ما يحدث لي في الحلم(الرؤيا) هي من أحداث ووقائع الطفولة والصبا، في بيتنا القديم، أو في بستان أبي الأول. النخل والانهار ومتسلقات العنب، والدروب الموحلة والثياب الجديدة والبالية والممطورة، ومن ثم الحياة والخوف، ومشاهد الموت في الحرب، وبعدها الوظيفة والمقهى وخصومات في الثقافة. تفاصيل غائرة في الزمن، تخمرت طويلاً في الذاكرة لتظهر أحيانا على شكل حلم ما.

مثل تشبث الامكنة والحوادث الماضية باحلام الانسان تتشبث مفردات الحياة الاولى بلغة وعوالم الكاتب والشاعر ، تلك التي فتح عينه عليها في الطفولة والصبا، فابن القرية لا ينفكُّ يحمل مفردات الماء والجداول والاشجار من هناك، حيث ولد وترعرع، وابن المدينة يحمل ما كان محيطاً به فيها، ومثلهما يكون ابن البادية، وقد لاحظت ذلك في كتابات وقصائد العديد من الاصدقاء، في مدن عراقية مختلفة (البصرة، بغداد، الموصل، الناصرية، السماوة، كركوك..) دونما حاجة لذكر الشواهد على ذلك.

الطبيعة ببديئتها هي الحاكمة في سمع وعين الطفل المولود في القرية، ليس النهر شقاً في الارض، يجري الماء به، وليست الشجرة كائناً اخضر يحجب زرقة السماء، وليست البقرة والاوزة والبط والثعلب والسمكة والسلحفاة وو.. صوراً في كتاب القراءة، أبداً هي حياة كاملة، ستظلُّ عالقة في العين، لاصقة بالوعي، ومتكررة في الحلم، الذي لا فكاك منه. هي صوت المتحدث الاول الذي وقر في سمعه، وهي الصورة الاولى، التي نبتت في حدقة عينه، وهي المكان الآمن الأول الذي ألِفه فالتجأ اليه، فحفظ جغرافيته، وما ينبض فيه من الدم والسوائل لا يعدُّ شيئا، ازاء ما ينبض حوله، وما يعتمل أمامه اكبر مما يعتمل فيه. هو واقف وهي تتحرك، هو صامت وعناصرها تتحدث، فهي الأقوى. الشاعرُ في الطبيعة خادم وهي سيدة، تفزعه آنَ تبحث عن طمانينته، وتدعوه آنَ تطرده، وتتوسله آن ترفضه، لذا تخلد مفرداتها في لغته وإن غادرها.

يؤرخُ ابناء القرى مجمل حيواتهم على وفق ما بين ايديهم من تقلبات الطبيعة، فيقرأ الناس في ابي الخصيب الاشهر قراءة عربية الى اليوم، فهم يقولون محرم وصفر وربيع أول وربيع ثاني وجماد اول وجماد ثاني وشعبان وفطر وثاني فطر وعيد الزغير وعيد الكبير ووو و.. ويحددون ساعات حضورهم لبعضهم على وفق توقيتات الصلاة، فهم يقولون بعد صلاة الفجر، وقبل صلاة الظهر، والضحى او الضحى العالي، والعصر ومسيّان، ولا تخرج امثالهم عن ما يجاورهم من مفردات الطبيعة، فالشعر السبط خوصي، وذات الوجه الجميل كانها خبزة، وصاحبة الوجه القبيح مثل المِلزكَة، والرجل السليم، ذو العافية صِلّ، والمراة الطويلة عيطة، والنار الهزيلة هي نار الكرب، أما القوية فهي نار التوت، ويقاس عمل الفلاح الناجح في عمله

بمسحاته، والمنجل الطويل ليس لقصِّ السعف والعذوق حسب، هو لحكُّ الظهر والاكتاف أيضاً.

قبل مماته، ظل عبد الجبار عمّي ممدداً على سريره سنوات عشر، لم ينس فيها تفقد أغراضه، والسؤال عنها، وما هي اغراضه؟ هي المسحاة والمنجل والهيم والعكفة والطبر والفروند، كان بانتظار اليوم الذي سيقوم فيه، لذا عليها ان تنتظره، وتتحمل عبء ما يعاني منه. لم تخلُ جملة في حديثه من المفردات تلك. فقد ظل أمينا عليها حتى مات عنها.

ربما يجد القارئ سطوة الطبيعة ومفرداتها الكثيرة في ما أكتب، وطغيانها على صفحات كتبي، و قد يعيب عليَّ ذلك آخر، وهنا، أجدني ملزماً بالقول: أنا مريض بهذه، مصاب بداء المفردات تلك، ومثل حزنكم على ضياع العراق حزين لفقدها، لأنني لا أجد حياتي خارجها، هي أقوى مني والله، أتوسل اليه/ كم ألا يعيب أحدٌ عليَّ مرضي هذا. فقد كانَ حاضرة حياتي، النخل والأنهار والماء والمطر والطير والأبقار والعشب والأسماك ووووو العوالم تلك كانت تشلُّ حركة الانسان من حولها، فلا يبدو فيها الا صغيرا، وهامشيا ازاء حضورها القوي. الريح تقول شيئاً، والمواسم تتحدى، والمطر يهمي، ويزهر الرمان، ويورق العنب، وينضج التمر، وتلد البقرة، ويهجم الخنزير، ويسرق ابن آوى، وتمرق الأفعى، ويقفز الذئب، وتخرج السلحفاة، وتنق الضفدعة.. يسقط سور السعف على حقل اللوبياء، وينهار جرف النهر بارتفاع المد، وتحتجبُ الشمس خلف شجرة الرمان، ويفترش الجلنار فقر الميضأة، وينقر الغراب حبة الخوخ فيفسدها، والله، لو قيّض لي أن أملأ الورقة هذه لما خلصت الى فعل من أفعالها.

النّهارُ حامضٌ وأنتَ تموتُ بهدوء

تميتني ساعة إثر ساعة أكفُّ الفلاحين، الذين لم تمنحهم الجرّافات وقتا كافيا ليرفعوا اخصاصهم، وجذوع بيوتهم عنها، أولئك الذين لم يتمكنوا من لملمة بذورهم من زروع العام الماضي حتى، تلك التي يبست تحت شمس تموز المحرقة، وأفكّر، محموماً بالأرض المجهولة التي سيحثون الخطى باتجاهها، بالآفاق التي لم تسم بعد، وهي تنتظرهم. أحمل عنهم حلم زورق مشدودٍ الى شجرة المسناة. وقد ظلَّ يروح ويأتي ويتقلب على الموج، الباذج النديّ، ومع أصوات الأبقار وهي تثغو خارج الزريبة، مع مواء القطط تحت الاسرة، التي سترفع بعد قليل، مع نباح الكلاب الذي راح يتعالى، بين النخل والانهار، ومع أشياء أخر، سيتركونها دالة على هزيمتهم ساظل أنشج وحدي،غريباً، لا أملك حيلة لأحد، اتحدى الألوهة وحشد النبوات وخرائط الاضرحة الخضر، التي لم تثن من عزيمتهم في الرحيل.

وقبالة مركبة الألم التي سيخلفها هؤلاء، سأبكي أصدقائي الذين لم يجدوا الوقت مناسبا ليموتوا بهدوء، وأقول لهم: ها قد استعجلتم الطعنات والمقابر، أفكر بالخطى الناقصة التي لم تكمل دورتها بأقدامهم، بالمطر الذي سيظل يغسل شواهد قبورهم طويلاً. وفي وحدانيتي المطلقة، سانشغل بأرقام هواتفهم، أزوّل لهذا وأنتظر ذاك. ساتركها ترن وترن، حتى تملأ البرية شجنا وهمهمات. نعم، لا أعلم من ترك هاتفه على كومدينو النوم قرب سريره، حيث قضى ليلة البارحة، مثلما لا أعلم من هذا الذي استعجلته الرصاصة، ولم تمهله لكي يعيد هاتفه الى جيبه، فقذف به على

الرصيف، أو ذاك الذي قضى وهو يتلقى الطعنة والطنعتين، في شارع مظلم سقطت أعمدة نوره من سنوات..وذاك الذي خانه قلبه أو شح الهواء في رئتيه..لكنني سانتظر ردَّاً ما، ردَّا ياتيني من فتحة في قبر ربما، من نافذة ظلت مشرعة على الظلام، منذ أن ابتكر الانسان النوافذ والابواب. سأقول إنني انتظر بريداً مجهولاً، يجيئني عابراً محيطات الرمل وفيافي الماء. فعلى الأرض هذه، ثمة من سيقول لي مساء الخير، أو صباح الخير. أنا متيقن من ذلك لا محالة.

كنت سألتك عن بستان الحاج كاظم ابن الملا خضير، ما إذا ظلت من نخلاته واحدة، ومثل ذلك سألتك عن بساتين بيت الفليج، والدويشية، واليعقوبية والشكارة، والبحيرية، ومريوش والعشرات والمئات من الدونمات التي كانت يوما هنا وهناك، فكنت تشير بيدك العاطلة إلى نهاياتها ومآلاتها. وحين كنت ألحف أسألك عن بيت فلان وفلان وفلان كنت لا تني تشير بيدك خلف ظهرك كناية عن الغياب والرحيل والفقدان. يا ألله. أكلُّهم؟ فتقول لي : إيها والله، كلهم.

يقول صبيٌّ بيتهم أقصى الجنوب، بانه فقد أباه في حرب كان دخلها بقميص وحيد، قميص مما تنسجه الطبيعة، وتخترعه الانهار، قميص من سعف وظلال: يقول إنه لم يجد كوب الحليب للرغيف الذي طال مكوثه بين يديّ، فهبَّ حاملاً بندقيته الى هناك، كان يحلم بهاتف يكلمه من خلاله، لكنَّ بندقيةً صدئةً استعجلت المسافة التي بينه والهاتف، فسقط هناك، هو الآن ينتظر نعشاً تحمله مركبةٌ صغيرة، ستتوقف هنيهة عند ضريح على الفرات، ومن هناك سيتخطفه الحَمَلة والنَقَلة المشيعون، وسيمكث وأخوته الذين انتظروا معه وصول الحليب، ثلاثة أيام في خيمة العزاء، التي نصبت له أقصى الملح والسباخ، لكن أحداً ما لن يهرع اليه، يسمح على رأسه بعد الأيام الثلاثة تلك.

بحر وصخور واشـرعة

كنتُ سأكتبُ كتاباً عن الاشـرعة، إلا أنَّ ماكنة الزيت أفسدت الفكرةَ عـليّ، فـلا حاجة لي بعد اليوم برفع اصبعي، والتكهن بحركة الريح غرباً أو جنوباً، ومـا عـدت انظر الى النجوم إذا ما إنحرفَ سيرُ مركبي الصغير، فلا خشية من ارتطامه بالصخر، لقد شجّعت الهواتف الذكية وخرائط الـ G.B.S الحديثـة البحـارةَ عـلى السـخرية منّي، والتندر بمعرفتي، التي لم تعد تعني لأحـدهم شـيئاً، لـذا، سـأتركهم يبحـرون حيث شاؤوا، وساركب البحـر، باحثـاً عـن جزيـرة خاليـة، لم يشـاهدها أحـدٌ مـن الطلاب في اطلس المدرسة، وسأسعدُ بقضاء أيامي الاخيرة هناك، صحبةَ الاحراش والسلاحف والقواقع التي ستتسلل بالليل الى فراشي، وساطعمها ما تبقى في صـرة متاعي من الخبز والتمر والقثّاء.

عند المقطع الصغير هذا، في القرطاس، الذي عثرتُ عليه مصادفةً، كان البحّار قد توقف عن الكتابة، لعله انشغل ببناء بيته الجديد، بعيداً عن البحر قليلاً، في احتجـاج واضح، وربما يكون قد ذهب لإطعام مخلوقات جزيرته وافترسه احداها، مما اضطره الى ترك الكتابة، أو انه كتب شيئاً أخر في قرطاس ثان، متحدثاً عن آلامه الجديدة، في مغتربه، الذي اختاره هناك، ولم نعثر عليـه، وربـما يكـون قـد عـانى مـن ضـمور في عضلات يديه، اللتين اعتادتا سحب الحبال، ونصب الاشـرعة، وانتشال السلاسـل الثقيلة من الماء، فلم يعد قادراً على الكتابة. بمثل هكذا بدايات يمكننا إنشـاء قصـة، وتأثيث مادتها بما نتخيله، والاتيـان بحيـاة غريبـة، ومفارِقـة، لبطلنـا البحّـار، فكـل

التوقعات ممكنة، وليس لأحد الحـقُّ بفـرض علينـا تفاصـيل أكثـر لحياتـه، لكننـا، بالتأكيد، سنبحث عن نهاية ملائمة.

لكنَّ أي نهاية سعيدة ستبدو سخيفة جداً، إذْ ما معنىٰ عودتـه عـلىٰ ظهـر سـفينة، أضطُر بحّارتُها الىٰ التوقف في جزيرته هذه، وانهم ارادوا دفـن بحّـار عزيـز علـيهم، مات بضـربة شمس، او حزَّ حبـلُ الحنـين رقبتـه فـمات في نوبتـه الليليـة عـلىٰ ظهـر المركب، وأنهم، فجاة عثـروا عـلىٰ قرطـاس صـغير، عليـه أصـداف أسـماك بحريـة عملاقة، وتزكم الانوف رائحة موت قريب.. وأنهـم انتشـروا في احـراش الجزيـرة تلك بحثاً عنه.. لا، لا أبداً، مثل هكذا نهايات لا تبدو مشجِّعة، وأنها تشبه ما نطالعه في كتب البحارة الفايكنج، او في قصص ومذكرات قراصنة شبه الجزيرة الايبرية، لا، مستحيل، فالقصة الىٰ الان تسير علىٰ وفق مشيئة الكاتب البّحار، الـذي لم يـترك لنـا نهاية بعينها هو أيضاً.

في جانب من حياتنا نرىٰ بأنَّ قصة حياتنا تشبه الىٰ حدٍّ ما قصة البّحار التي لم نعثر علىٰ نهاية لها بعد، حياته ببدايتها المفتوحة والمعلنة، لكن بنهايتها المغلقة. هو لم يقل لنا بانه أُضطُهد من نظام سياسيّ، أو عاني من تشدّد حزبٍ ديني، او مـن انهيـار أسـعار العقار.. ولا من شيء آخر، إنما عانىٰ من حياة فقد معنىٰ وجوده فيها. !!!

ما تاركٌ في الارض، ما صانعٌ أنت بالسماء؟

لا تقلقْ، لأنك لم تبلغ وجهتك بعد، فما أنت من الخسران بشيء، هناك الكثير مما لو تجاوزته لأكل قلبك الندم، ولطالتك صيحات أمّك، في آمادك العاليات، وأنت تتحلق من غصن لغصن، في شجرة متاهاتك. كلُّ كمالٍ مقلقٌ، وكل وصول حيرةٌ، لكنْ، كل نقصان سرور، وكل عوزٍ مذلة وتوسل، أرأيت أجمل من مذلة بين يدي الحبيب؟ وهل يضيرك عوز واحدٌ اليه؟ وفي كل رهبة من لقائه تدفق للدم فيك. هبْ أنك بلغت أعلى غصن في شجرة اليوكالبتوس، التي تسلقتها طفلاً، ما أنت صانع بالسماء؟ ما أنت تارك في الارض؟ رأيت منارة جامع المُقام، وخزان الماء العتيق في باورهوز، والقباب الخضر التي تحيط مسجد الموسوي.. ثم ماذا؟ هل ستقف على بغيتك عند حدٍّ ما؟ أبداً، فهذا الفضاء يتسع، كلما أعملت ببصرك فيه، فهو محدود عندك، وأنت متسعٌ موقوف لديه، فقفْ حيث أنت، قفْ.

قبل أن تكمل الشمس نسيجها على مدخل الفندق، دخلتُ مدينةً ما، لن اسمّها، إذ، كل اسم لشيءٍ يُذهب ببعض معانيه، وكل تعريف افساد لصورة مرسومة له. ومن الحافلة الكبيرة التي جاءت بنا، من المدينة التي كنا فيها قبل اسبوعين، أخذني سائق سيارة الاجرة الصغيرة الى السوق، لم يكن سوقاً، إنما دكانة لبقال وحيد، أجْمَلَ بضاعته في كيس، كان جالساً بانتظاري، أنا زبونه الوحيد، وهو بائعي الاخير، في السوق الكذب، لا يُحسن لغتي، ولا أحسن لغته، لكنه مدَّ يداً يابسةً فصافحته، وأطلتُ ابتسامة بوجهه، فانفرجت اساريره، أثنى على السائق، قبل أن يسلّمني ما ابتعت منه. في المدينة التي لم تُقفلْ أبوابُها بعد، كان السور عالياً، ليس ذاك الذي

شيّده كالفينو في مدن ماركو بولو، أبداً، هو سورٌ ظل يرتفع، شيئاً فشيئاً، في ظلام المدينة الذي ران ، ومن جوفها الخَرِب رحت أسمع وقع المطارق.

يعمدُ سفّافو الحُصر من الخوص في مدن النخل ومثلهم يفعل نسَّاجو البسط والسجاد في مدن الاغنام والماعز، وكلٌّ ذي صنعة وحرفة قوامها الحجر والخشب والحديد والجريد الى ترك عيب ظاهر، في ما يسفّون وينسجون ويشحذون وينجرون ويبنون، فترى الحصير جميلاً، والسجادة باهرةً، والبساط غاية في الأناقة، والبابَ بدعةً في الصنع، لكنك ستقع على غرزة ناقصة فيه، أو ثقب صغير ترك، أو مسار وشيعة متعرج، شذَ عن جادته، هو اختبار المتأمل العَجِل، وإذكاءٌ في الخيال، وسقطٌ متعمَد، تقصَّدته الاصابع والعيون، فأنزلته العقول منزلته الحق. قبائل السفافين والنساجين والنجارين والبنائين تواتروا على ذلك، توارثوه عن أسلافهم، وظلوا يوهمون الناس بكمال صنعتهم، التي لن تكمل أبداً. إذْ، كلُّ ما يفعله الانسان ناقصٌ، ومخروم، فالكمال صنعة الآلهة، التي في السماء. بالترك والنسيان والغفلة العمد حافظ هؤلاء على أصابعهم، لتظل تسفُّ وتنسجُ وتنجر وتبني.

وفي معنى الحبَّ يقول صاحبٌ لصاحبه:" لا أخطبُ اليه مودةً، لكنني، طيرُ السماء، على ألفه من الارض يقعُ. يا الله، أفي اللغة قول أصدق من هذا؟ أسألُ، أحياناً: ترى، هل القبلة والعناق واللثم والضم وسواها حدود مثلى، ونهائية للحب والود؟ أما كان أجدر بالطبيعة أن تمدَّ بالحدود تلك، إلى ما لا نعلمه وندركه، أبشتباك الاصابع يستنفدُ هذا الحب، أبنطواء الجيد على الجيد نبلغ المراد؟ أبغرز الانف في غابة الشعر الجعد نسترد الارواح؟ وماذا عن اصطكاك أضلاعنا بأضلاع من نحبّهم؟ هل وفيناهم حقهم في الودِّ والحبِّ والشوق.. ما لهذه الروح لا تُروى بشيء؟ ما لهذا الجسد لا يكف متلهفاً محترقاً، تتدفق انهار وجده، وتنبثق عيون شوقه، وهو ظامئ أبديٌّ، تتلاطم بحار مراده من حوله وهو غريب؟

الريحُ تسوسنُ اغنيةً هناك

ليس الوحشة أن لا تكون لك حبيبةٌ، وقد انقضت السنوات، إنما الوحشةُ أن تنبثق لك من بين جليد السنوات امرأةٌ، تنتصب، لتحدّثك عن الحب والغربة، عن تراشق العطر في قوارير الكلام، وعن الطمانينة الكامنة في قلب السلام، وتمررُّ أصابعها الرطبة الصغيرة على الكدمات والقروح، التي لم تبرأ منها بعد. امرأة تعتنق عنك آثام العمر مذهباً وطريقة في العشق، ومطمئنةً، تدخل معك خرائب روحك، ونهايات الطرق المظلمة، تأخذ عنك ذلك كله، ثم تخرجه في الصباحات الى السهول، والمفازات البعيدة، تغسله من عفن الدهور، وتهذّبه من المواعيد الكاذبة والخيبات، ثم، وفي غفلة منك، أو بدونها، تستبدلُ أديمَ روحك المتغضن، بما اتسق في قميصها من الطفولة والندى والكركرات.

في السهول التي لم تكُ سهولاً من قبل، وعلى قمم الجبال التي لم تطأها النسائمُ بعد، وفي الأودية حيث ينمو الصمت، غريباً، خلف أجماتها، هناك، حيث لم تسمَّ الاشجارُ بعد، ولم تنحت حوافرُ الماعزِ الرملَ والحجرَ، ولّما تستدلُّ الصقورُ على أقرانها، في المارثون الاول للريح، قبل النار والآلهة السارقين، يوم كانت الشمسُ تشرق بدفقٍ واحد، وكانت النجوم كتلة ضوء واحدة، ولم يهتدِ احدٌ لنهر، ولم تنبجس من الصخور قطرةُ ماء بعد، وحيث كل ما في جوف الطبيعة خرسٌ وعماءٌ، من هناك، ومن غيمة عابرة وحيدة تتنزلُ امرأة، بعمر دراجة طفل صغير، تقرأُ الشعر بلغات العالم كلها، ثم تأتي بطفولتها على الحروف التي فيك، وعلى سلالم الانغام الى

تؤويك، وعلى الازاميل، التي ما انفكت تقشط لبَّ روحك، ترى، الى اين ستمضي- بقلبك قوافلُ التيه هذه، وحتى مَ تتأمل كيانَ الجسد، فلا يُصدرُ نغماً، وقد اصطفت السنونوات على سلك صبرك الرخو؟ أترى، ثمة من كان يصغي وينتظر، أو من سيخطّ لك طريقاً الى العشب، ويدلك على الينابيع، في تقاطع المصائر والمسافات هذه؟

لا نتذكرُ اللحظةَ التي هياتها الاقدارُ لتكون فاصلة بين الحب وسواه، فلحظات مثل هذه لا تدخل الزمن، ولا تنتظم في قوانينه، هي خارجة منه حسب، فقد تلجُ المرأةُ قلب أحدنا من بيت في قصيدة يائسة، قالها شاعر ما، أو من أغنية منسية، في فيلم طويل، أو من لحظة خذلان على مصطبة، في حديقة عامة، لكنها ستجئ لا محالة، بعطرها وعواصفها، برعدتها الاولى، أو بخمودها الاخير.. تصفّرُ الزمنَ، ليبدأ منها، ولتنطلق سهام الاقدار الى كل الجهات، تعبث بخوارزمية الروح، وتتطفل على قوانين الفيزياء، تربك معاجم اللغة، وقواعد النهايات.. لكننا، ومن كوّةٍ مهجورة في سور المدائح، سنجد انفسنا فجأة، وقد اطمأننا الى قميص الحبيبة، الذي تهالكَ، مثل قطةٍ على حافة السرير.. فلا يُربكنا مشهدُه هامداً، ولا يسوؤنا تزاحمُ السراويل على مشجب الثياب، أو عدم انتظام الاحذية في مخزنها عند العتبة.. لاننا، بالكاد، وجدنا الطريق سالكةً، الى هناك، الى حيثُ الحَلَمَةُ فستقةً ستنفجرُ، وما يضوع بينها وشقيقتها غابةُ عطر لا أكثر، وأنَّ المطر في الحديقة سيحفر طريقاً لا محالة الى السوسن.. ترى، أيكون لزاماً علينا التوقفُ طويلاً، وإنعام النظر بألواح الميزوبوتيميا العظيمة، بعطايا الآلهة عشتار، بالجسد الدمّوزي الاخلد، الذي سقّاه الرافدان ماءَ الحياة الاولى، بالمسافة المضيئة التي تفصله عن اليقين وما يليه، وقد أضعنا كل شيء.. الكلماتِ، والعناقَ، والقبلَ، وطعمَ النبيذ.. ذلك لأننا، لم نحسن الاصغاء الى الاغنية التي تسوسنها الريحُ هناك.

المدينة ملح والهراوة من الجريد

مع البلبل الذي في القفص أقتسمت كوب الماء الحلو، ومن الخزان، الذي فقد لونه تحت شمس تموز وآب حملت الجردل الى الفسيل، غرسته، في الربيع الذي قصر جداً، لكنني، وبعين من الدمع، حمراء، أبصرتُ الفاختةَ وهي تهوي من الغصن ميتةً، تهدَّل جناحاها، وتهشم منقارها وذوت، لكأنني أشم نداء الماء في حنجرتها، توسلت بالقط الاسود ألا يجرجرها الى مكيدته فأبى. صباح ومساء، كل يوم كنت أصغي لندائها، مبحوحاً يأتيني من السعف، ومن العذوق التي يبس تمرها، من الريح، تترجم الجمر في هبوبها وتغدو قائضةً، من النهر القريب، وهو يأتي بالملح الاجاج، من البحر اليّ، كانت السلاحف نائمة في قاعه فخرجت، وكان القصب لائذاً فمات.

ما كانت البصرة عاقراً لتدلك بالملح فخذيها وما كان ابوها (شط العرب) أمرؤ سوء ليسقط بنيه برصاص الآمنيين في ساحة عبد الكريم قاسم، إذ، لم يئن بعد موسم كراهتها، لم يحن بعد وقت جفاف باطن ضروعها. مدينة النخل والكَرْم والخشابة، الطريق الوحيد الى الهند وخيط اللوبياء الطويل، مدونة السيد الجاحظ، وحافظة أثر فرس علي. فلا ترفعوا هراواتكم عالياً أيها الجند، اجعلوها من الجريد، فهي أحب السياط الى ظهور البصريين، لا تطلقوا الغاز المسيل على عيونهم، هي رمداء منذ اشهر ثلاث، فقد ولغ الملح فيها حتى ظننّاه اكتوى ونام، لا تتعقبوا خطواتهم فهي في الريح التي على الماء، اركنوا عرباتكم المصفحة قرب أي بيت في

المدينة، فهي آمنة من هلع وخوف، طيعة من ألم ونسيان، باذخة من موت يتأجل ساعة من النهار، ولا تنسوا، اكتبوا بالقرمز الوردي أسماء غضبكم على أي جدار، ستكتب الامهات رسومكم على المهافيف، وبين طيات ثياب الشهداء ستنمو ريشة سقطت من جناح عصفور صغير، مات البارحة. يا أنتم، يا من تقفون بوجه النخل الذي يحترق. في الشطآن المنخورة بالملح، ثمة من لا يخترق اليأسُ كوخَ مسراته.

أحرق الولدانُ السمرُ الاطاراتِ في الساحة، نعم، وبالحديد المضفور اللين سدوا الطريق الى سراي الحكومة، نعم، وبالقمصان المبللة بالدخان وقفوا، بالقبضات العارية اصطفوا، نعم، وبالغضب القديم جاءوا، نعم. لكن، ليس بينهم من تجرأ وسرق حلماً، وليس بينهم من نادى على غريب فدخل، وعلى قميئ فغزا، وليس بينهم من لم يقف على اسوار نينوى حامياً؟ إذن لماذا، تستكثرون عليهم وقوفهم في الشمس تماثيلَ ملح، وفي الظلام اشباحَ موت؟ لماذا تلقون بخيمتهم في النهر المتسخ، وإذا طلبوا الماء له تداككتم الى البنادق، تطعمونها الغاز والعمى والنار، وتفرغونها من معانيها؟ أهكذا تفعلون بمن وقفوا، يتأملون النخل ساعة ولد وساعة يموت، وساعة تبعثون في ضمائركم؟ لئن، كانت الانهار زفرة سمك وهسيس ورق وكركرات ذات يوم فقد مات الذين كانوا أشرعتها، ها هي تُسرق وتتمزق أعالي النهار.

من الطين الذي يُمسكُ ولا يمسك خلقت المدينةُ أبناءَها ولم تخلقهم من الرمل أو الملح، فكانوا جميعاً ولم يكونوا فرادى، وكانوا تعاضدوا، فصعدوا السماء التي كانت زرقة وأهلة، ونزلوا النخل فكانوا ظلاله على الماء، الذي منه مسراتكم، وكانوا أتوه من رواءٍ ولم يدخروه، ضانين به من ظماء على بعضهم، لم يحبسوه في زجاجة، ولم يصعّدوا به، جاهدين الى غير سبيله، فكانّ دابتهم في انهارهم وبساتينهم، يطلبونه

فيأتي، ويفرغون منه فيروح، كتبوا مواسمه على جذوع أشجارهم، وعلى رقاب مواشيهم علقوا أسماء آلهته السبع.. هكذا، كانوا، منذ أن غرس أبو بكرة فسيله الاول، حتى عبد العزيز، حفيدي، الذي هدّهُ الملح في السرير ونام. فلا تأمنوه. ستأتي امراة، سمراء من رطب وحناء، تحل قماطه الليف، تعلمه القفز بين القوارب، وسيأتي رجل من مغيرب النخل، يعلمه العبث بين العراجين.. هناك، حيث لا يكون ملح، ولا يكون رماد، سيكون آخر أطار قد احترق بالكامل، وشربت السماءُ دخانه.

من مراثي الجمال

1

الجسد اجمل في الرقص والتناغم، وهو أقبح في الكسل والخمول، وأن العين في الابتسام اجمل منها في الدمع، والروح ترتقي بأفعال الجمال، لكنها تذبل في البغضاء والكراهية.. ترىٰ فعلام نستخدم العقل للشر، ونكبل الجسد بالقيود، ونجعل العين دامعة أبداً، ونجعل من الروح وعاء للنبذ وكراهية الآخر؟

ولأنني، حالم أبدي، فقد قلت ذات يوم بأنَّ شعر المرأة المطلق في الريح يمنحنا ما لا تمنحنا إياه الخرق السود، التي تضعها علىٰ رأسها، وأنَّ كاس النبيذ بلونها الخمري وبفعلها في الروح أصفىٰ بكثير من كؤوس الذّل والصبر، التي نتجرعها بإرادتنا كل يوم، وأن اسيجة المنازل بورودها وألوانها وروائحها اخف علىٰ الروح من يافطات الموت التي نطالعها عليها، ولا أستحي من قولي بأنني بحاجة الىٰ الموسيقىٰ المنبعثة من حديقة دار الاوبرا اكثر من حاجتي لصوت مؤذن المسجد ورادود الموكب، ليقيني بأنَّ الطرق الجميلة والملونة هي الاجمل والتي تؤدي الىٰ الله.

أحلم بمدينةٍ لا أقرأ علىٰ حيطانها نعياً لقتيل مغدور، ولا يترصدني أحدٌ في شوارعها. مدينة لم تتلوث سماواتها بغربان آدميين، فانا، ومنذ ولدت أكره السير في أزقة لا حدائق في بيوتها، ولا نساء جميلات يطللن من شرفاتها، ولا صبايا مفتونات بأشرطة ملونة، يرقصن في باحات مدارسها، وما اجملها من أحياء، تلك التي يتبادل

سكانها القبل علناً في الملاعب والمتاجر والحدائق العامة. لست متوحشاً بما يكفي لئلا تدمع عيني في حضرة عاشقين متعانقين على جسر، ولا أقرب لنفسي من رؤية السواحل المزدحمة بالمستحمات والمستحمين، هناك، حيث يكون الجسد مجرداً من محمولات الوقار الزائف والتمنع.

التيه في الغابة ليلاً أقرب لروحي من وصولي الآمن الى غرفتي في فندق المدينة. ترى، لماذا تجبر ابنتي على ارتداء قميص لا ازهار فيه، ولماذا أخشى على زوجتي، كلما تاخرت في عيادة الطبيب؟ ولأجل منْ تجري دموع ابني؟ أحدهم ضرب كلب جيراننا، ذا الشعر المنسرح الطويل، صوته المبحوح يجرح قلبي الآن.

هناك من يشوه انسانيتنا باسم الرب والاضرحة والقبائل، وتفزعني مشاهدُ الحِملان المساقة الى المسلخ، ومسكينة تلك الببغاء التي في قفصها، يقولون بانها: داعرة، هناك من علمها الشتائم، ألا ترون معي بانَّ ثياب السهرة الشفافة والملونة أجمل بكثير من ثياب المآتم السود؟

2

ستكون خائباً مرة أخرىٰ، وقليل الحيلة إن كررت وقوفك في الساحة العامة، وسط المدينة التي كانت ترددُ مع الجوقة كلماتِ الشاعر الذي يدّعي أنه ينافسك في حبّها، هذا الذي لا يعرف عن الجمال في أوديتها شيئاً، وعن الجداول التي تفيض في المساء فلا تدركها الأبقار إلا ساعة الفجر، ولا يعنيه من أمر المركبات، تخترقها بين الضواحي المحفوفة بالشجر. هو يطلسم ما ابتدأت به واضحاً، فلا تفصح أكثر مما في لغتك من شأوٍ. الفصاحة تُذهب بمعنىٰ الكلام وغايته، وتذلُّ اللغة، وهي خيبة العارفين. أنت تدرك أنَّ الكوز مكث طويلاً بين الماء والتراب، فقل له إنَّ يداً بصريةً، خصيبيةً، سومرية خلقته، واستودعته الحياة، ثم نفثت فيه النور والحكمة والجمال فكان. قلها له، لن تخسر الكثير من مريديك، ولن يتبعك الحوذي القبيح بحصانه الهزيل ذاك، هو أمر يشبه وجودك في بستان جدّك، حيث لم يُحسن الفلاح قيادة الشمس والماء الىٰ الترع البعيدة.

في الساحة تلك، حيث تقف، سيتضاءل معنىٰ وقوفك ساعة إثر أخرىٰ، وستكون وحيداً، شاحب الوجه، فلا يتكئنَّ أحدٌ علىٰ جدار صمتك، وإن أبصرت الحشد فدونك المسالك، خذها. قف حيث لا أحدٌ يراك، ولا أحد يسمعك. أطل الصمت في زاوية وجودك، ودع الليل يأتي خلسة، دعه يهبط بنجومه في حضرة انهيارك، لكأنني أنظر اليك، من مجلسك العالي، هناك، علىٰ أرفف المكتبة، مع الغبار وما نسجته العناكب، تزاور المروحة كي لا تشجَّ رأسك. ومن سقف ما بنيت من

المعارف والصفات، سترمي عليَّ بما كتبت، وعليهم بما قرأوا، سيطول اليوم ذاك، ولن تبلغ بما ترمي به نهاية، لن تشفي غليلك في أيٍّ مما كتبت، لكنك ستتذكر ما قلته لك: ما انتفاعك في سطور تكتبها في المساء، ثم لا تجد من يقراها في الصباح، ها قد بت ترشدهم الى ما تكتب، ومن قبل، كان الشاعر، حسين عبد اللطيف، كاهن المدينة، وحارس جمر موقدها.. ذاك الذي قبره في الغري الآن، قد انتهى الى ما ستنتهي اليه.

بلغني أنك اعتذرت عن لقاء الجريدة وأسهبت في الاعتذار. المحرر قال لك بأنَّ الجريدة لا تدفع أجراً عن لقاء أحدٍ، شاعر، كاتب.. حسبها التعريف به، وبذلك المكافاة، وهو من قبيل أفعال الصحف والمجلات، وهو فعل حسن لا ريب. كان نداء غيابك أبهى من نداء حضورك، وكانت صورتك في حاسبوك الخاص أصدق منها في الجريدة، هذه بلاد لا يحفل مواطنوها بالصور. أمسِ، حين أسقطتْ سيدةٌ زجاجة عطرها الفارغة في الشارع لم يعنفها أحدٌ، كلهم نظروا الى الزجاجة على انها زرقاء وجميلة، وفيها بقايا عطر امرأة، وسوى عامل النظافة لم يقربها أحدٌ، يقول بائع أسرار النساء إن المراة تقذف زجاجة عطرها الفارغة نكاية بالرجال الذين يحبونها. أمر ملتبس حقاً، ترى ، لماذا يقذف الأخ الاكبر من عليين مكتبته بأغلفة الكتب علينا؟ هو يمزق ورقة الاهداء ويقذف -الورقة التي تلي الغلاف، حيث تُكتب الاهداءات دائماً- ولمّا لم يجد في باحة المكتبة فسحة فارغة فتح الصنبور وأغرقَ بماء اليأس الاسماء وكلمات التبجيل. لذا، أتوسل اليك. أرفضْ كتاباً ستضطرُ الى تمزيق ورقة الاهداء فيه.

منذ سنواتٍ لا تعدُّ، وأنت تنتهكُ قاعدة أقرانك بغيابك، تباعدُ بين امسك وغدك، هو حالك القديم، كما كنت تباعد بين نبتة وأخرى، تقول لا يصلح القربُ

سوىٰ البعد، ولا تبلغ المحبّة غايتها إلا بعد طول فراق، اسمعُ منك أغنية عن الليل، فلا يُصبح مع قلبك أحدٌ، يستهويك الصمت فتتخذه صنواً، وتتركك المراكب علىٰ شطآن نأيك فتقول: السرورُ صحبةُ الموج الىٰ السباخ.

أمسِ، وفي ظلمة المكتبة رأيتك تُمسك مطرقةً، قلتُ لك: أبين الأرفف ما يتوجب إصلاحه؟ قلتَ:لا. ياترىٰ، وما شانك بالمطرقة في الليل الأليل هذا؟ فضحكت مني. وحين تسرب النورُ الىٰ المصباح رأيت المنشار والمثقب الكهربائي والازميل والمقشطة وقارصة المسامير ومفلات اللوالب مبعثرة بين الكتب، هذه تحت وتلك فوق، ومع العناوين العريضة كنت اشمُّ روائح طرقٍ وقلع وقصٍّ وتحطيم. أنت تصلح شان مكتبتك بنفسك، مثلما تصلح شأن قربك بنأيك، مثلما تقنص طرائد قصائدك بفخاخ صمتك، مثلما تبتدئ فجرك بساعة ليلك. يالك من غريب علىٰ الحيطان، يالك من كثير علىٰ شاشة حاسوبك، صورك لا تعدُّ لكنها ليست متاحة لأحد، أقلامك في علبة الخزف مبرّأةٌ من كتابة الزيف، ومماحيك لا تمحو ما كتبت عن الانهار، كلُّ نائحة في الارض علىٰ نخلك، وكلُّ سباخٍ ليست لأبيك لا تصلح مثوىٰ لجسدك.

3

أولئكَ الذين لم يحفظوا لك نهراً ولا نخلاً، دعْهم في قيعة النسيان، اولئك الذين لم يصعدوا معك الى سمائك الأولى، ارتكهم في منابتهم، أراذلَ وأذلاءَ، أنّى لهم زرقة ما بين عينيك، أولئك الذين يئسوا من تقلبك في الصَّاعدين، انسهم، فما أنت بمستعجل سباقهم، وما هم بمقتفي خطاك الى النور. أولئك الذين ما تركت لهم مرقاة لبهجتك، دعهم في سبخة ما اهملتَ من الظنون، اوائك الذين جفّت ضروع أمنياتهم أنزلهم منزلتك التي يغرقون بها، اولئك الذين لم يلحقوا بما غرست في الأقانيم من مباهج، سمهم ما شئت، هم غرباؤك في التيه، التي خلقتها لهم. أولئك الذين لم يثملوا يوما بكأس صبرك ويقينك، ولم يتوقفوا بين ظلال ما غرست وما أصغيت له من الضوء والكروم أنّى لهم أن يفيقوا، كل الكؤوس التي شربتها أترعت لك، ولك وحدك، ايها المجنون بما أوتيت وأحببت، بما نسجت وتخايلت، بما التأم عليه جريدُ روحك، وأنطوت عليه سريرتك. مفردٌ أنت في بريِّة المعنى، لك أسماء النخل الكبرى والتوت والسفرجل، كله لك.. ولهم التيه.

البلبل الغَرِدُ في الفضاء المكنون أنت، والسَّيمرغُ المحترق في ايك المعنى أنت، وكل هضبة وهاوية أنت، وأنت الليل الذي لا تنوشه الثعالب، والمساء الذي دونه كل مساء، والفجر الذي انفجرت عنه الشموس، وانتظرتُه من ظمأٍ أكفُّ المسافات، وأنت الموت الذي يسَّابقُ للمنجّى منه الميتون، فيدركهم. فكن البصرة وما يشعرون. الى ايّ لحظة في الصحو تنستبُ، وكل إفاقةٍ وصحوٍ أنت، الى ايِّ خريدة في

الدهر أريدك دالةً، فتعجزني الاسماء. لا يبلغك أحدٌ في مداك، فأنتظرك.. وما أنت بمدركي في الفلوات، كيما اسميك مدركي في الانهار، لا نخل لك فتشهد قيامة الظلال، ولا أنستَ بماء قريب، دعني. فقد أودعتُ الاملَ والضوءَ في سَبَتِ الايام والليالي فكانت الاقمار، سمّيتُ الفجرَ قارباً فأخذني الى ضحى النخل، لكنني حزين، لأنني أضعتُ أمسي، وغدي بقرة عجفاء، إذا رأيتني في فلواتك ولا ابلغك، فهذا لاني الدائر في زجاجة التكوين، لكنني لا أراك، سأريكَ ما في فوانسي- من ليل الشامتين، حسبٌ.فلا تسألني نهاراً لا استطيعه. أيها الغرباء: بيننا الأرحامُ التي تجهلون، وبيننا البيد التي أعلم، بيننا النخل الذي ما أظلكم يوماً واستظل به من سبعين حجةً، أَنْكَرْتَني، فدعوني اكتب السماء مفازة، أو اموت دونها إن شئتُ، وإن شئتُ حييت. دعوني أدوّن ما تعاقب الأهلُ على رَفْرَفه وسُندسه واستبرقه، دعوني أمسح عن طرف الارض ما تخلّق في الغفلة منكم. دعوني ارسم خريطة النسيان، لأفي ما في رقبتي من حلواء المكان وغلوائه، أنا في قيامة الجسد، ولن أكتبكم في نهر الايام.

الجاحدُ أنتم، والغائبُ حين حضرت الناس المروءاتُ، أنتم.القابضُ يده ساعة مُدّت الايدي الى النور انتم. تركتكم أمُّهاتكم، واهملكم العابرون الى روض المسرات. كل المراكب تناهبت الريحُ مجاذيفَها وأبحرت، فهي في ماءٍ ونجم، إلا أنتم. تبرأتْ قواربُكم من أخشابها على سباخكم.. فناموا في خِربة ما أنتم عليه، ناموا..وليدحرج لحمَكم الجُعلان، هذا مآل من لا يفقهُ في صحبة النخل، ومن لم يقرأ كتاباً في معنى مجاورة الظلال.

في ذكرى (حارس الفنار)

ليست الكمأة في سوق الزبير تمظهراً شتائياً، موجباته الرعد والبرقُ والمطر، فتزدحم السوق بالسلال والعربات والوجوه المقرورة، هي منتجٌ صحراويٌّ، وترف ثقافيٌّ أيضاً، ففي البرية المطلقة بين بادية السماوة والمخفر الحدودي بصفوان ثمة ما يربك الخيل، ومن عليها. هناك، إذ لا أحد بمستطاعه لجم الافق، أو اللحاق بالشمس وهي تغيب، أو وهي تشرق ثانية في الصباحات. كلما صرت الى هناك، تسبقني الذاكرة، وتحضر المقبرة، بعلامتها المضيئة، الحسن بن يسار البصري، ويتعثر البصر بكِسر الشواهِد والارقام، فلا أحصي واحدةً، ولا أخطئ جدثاً، ولا أشيح به عن حبة رمل، هذا الشاعرُ المحمولُ مع المطر من الكويت، وهذا البريكانُ المحمود، الذي تتجدد حادثة مقتله في مثل الايام هذه، من كل عام، وليس بعيداً عنهما يثوي محمودٌ آخر، اسمه محمود عبد الوهاب ذاك الذي آثر أن يكون كتاب سيرته صغيراً، صغيراً بحجم الكف.

في كل زيارة الى الزبير، كنت أقتفي خطى أبي، الذي كانت دابّته رجلاه، قبل أن تحمله برذونه من أبي الخصيب الى هناك، بضاعته التمرُ والحطبُ، وتجارته عائداً منها الثوم والبطيخ، في الرحلة التي تمتد من النخل الى الرمل. لا أحفظ الطريق بالتمام، لكنني، ومن زجاج المركبة كنت أبصر طغراء قدميه، وحوافرَ برذونه فيما بعد، ذاك المسير الطويل ظل يرافقني في كل رحلة الى سوق الكماة، حيث يجلس الباعة حتى آخر النهار، وحيث يستبدل المتبضعون الوجوه واللثُمَ والنظرات، غادين ورائحين،

كنت أبحث في الظلال الباهته وهي تخطف، متعجلة عن وجه ابي، وهو يستبدل الطين بالرمل والتمرَ بالثوم، والحطبَ بالبطيخ والفجر بالمغيب. قبل ربع قرن ويزيد، اختفى سوق الاعلاف في الزبير، ومثله اختفت المفازة التي كانت تفصل سوق الطعام عن محال الرفائين والخرازين وحذائي الخيول، ذاك الخشب والصفيح المتعامد، الذي كانت تفضي واجهته الى المستحم، ولم أجد سوق الكماة كما عهدته، قبل ذاك.

قليلون هم الذين يبحثون في الظلال عن وجوه أسلافهم هنا، ولا يشعرهم أحد باختفاء ما كان يؤثث حياتهم، والاختفاء هنا لا بمعنى المحو والتواري في الارض، إنما بتهالك العلامات وإماطة اللثُم. لم تكن أوبتي خائباً من سوق الكماة خفيفة الوطء، عابرةً، ولن أجد في الشتاء الذي مرَّ سريعاً مرثية للروح، ذلك لأنَّ ما ظل يختفي فيها لا يعينني على المكث طويلا هنا.

في الطريق القصيرة، التي ما انفكت شجيرات الاثل تطوّقها، عند مدخل المدينة، تذكرت (البدويّ الذي لم يرَ وجهَه أحد) كنا نسميّه (حارس الفنار) قبل طعناته التي لم تبلغ العشرين الى اليوم. هناك مدن كان لها أنْ تظل ملثمة، وعلى سدنة مداخلها أنْ لا يفصحوا عن وجهتها في الزمن، وحريٌّ بنا، نحن الرواة أنْ لا ندخلها سافرين، باحثين في السوق عن كمأتها.

كنت قلتُ مرَّةً "بأنَّ القبر هو المكان الوحيد الذي سبقنا اليه محمود البريكان"، ذلك لأنه كان رائدا في الشعر، وفي كتابة المطولات، من القصائد، والقصائد المدورة، وسلالم الموسيقى فضلا عن خلائقه المعظمة التي أطلعنا عليها في القصائد التي تحاكي وجودنا، وتأخذ بايدنا الى الملاحم الكبرى، وهو دأبُ الكبار من الشعراء.

تذكرت الكلمة تلك وأنا عند قبره، صحبة كاتب حروف(المملكة السوداء) محمد خضير، في الزيارة التي كانت الى مقبرة الحسن البصري، حيث يرقد الملوك والولاة البصريون والشعراء.. وقبل أنْ يضربَ أحدُهم رأسَ حارسها بقنينة الغاز.

يقول رينيه شار: "لا تشكُ من الموت أكثرَ من الموتى أنفسهم..." لكن المكان موحش، والقبر قاع أعمق من تصورنا، وهو في النهاية مسكن الذين تعبوا من الجري على الإسفلت، ولأن مقبرة الحسن البصري في الزبير قريبة لنا نحن الذين نسكن البصرة فقد كانت زياراتنا لقبور أصدقائنا من الادباء هنا بمثابة (نزهة) قصيرة، عابرة للحظة الوفاء، إلى ما هو أبعد من ذلك. لحظة لا تدلُّ على التذكر في لحظة الفقد حسب، إنما هي لحظة للبحث عن المكان المناسب الأخير لأجساد تتهاوى تباعا، ترى هل فكّر شاعر كبير مثل كاظم الحجاج -هو الذي أسرني بأنه أشار على اهله بدفنه هنا-أقول هل فكّر بان المكان في رملة الزبير مناسبٌ لشاعر مثله (لم يكلف الله طينا كثيرا) هل قال لهم: "اتركوني إلى جوار صديقي محمود عبد الوهاب، ثمة طرْفة أخيرة لم أحدّثه بها"أو لعله قائل لهم : "الفسحة التي عند البريكان أقرب للمدخل من التي تنتهي بالسياج،"هو يراها أكثر سعةً. لكنَّ الحجاج بنفوره من الأماكن المزدحمة يرى مكانه هناك، هو الذي يتضايق من جليس سمين في حافلة على الطريق بين بغداد والبصرة لا يفكر بالذهاب بعيدا عن بصرته، وأنا مثله قلت لأولادي:

"لا تحملوا جثتي إلى وادي السَّلام

المنائرُ الصفرُ تستفزني هناك..

والطريقُ إلى النجف جدُّ طويل

دعوها غضةً، رطبةً على الانهار في ابي الخصيب

البلابلُ تسمّي الصباحاتِ لها

والدبابيرُ ، أعرفها تمرُّ مسلمةً

الأبقارُ تلطعُ الملحَ عن شاهدتي

فدعوني هنا...

لا أحبّني مربوطاً بالحبال على المركبات

وإنْ لمْ يكنْ لكم مِنْ بدٍّ علي

وسّدوني الرمل،لصّق سيّدي الحسن البصري

حيث يرقد أشياخي السيّاب والبريكان وعبد الوهاب."

هل شكونا من الموت أكثر من الموتى انفسهم يا رينيه شار؟

في لحظة تجوالنا بين الأضرحة الشعراء كنت خائفا من لحظة الموت حقا، ثم أني وجدت أن محمد خضير لم يكن لينصرف بكليته، إنما ظلَّ منشغلا في معاينة الرمل، وتصفح الحجر والشواهد، يصمت طويلاً لكنه مع محمود عبد الوهاب كان أشدنا وقاراً، هو الذي نام عند سريره في المستشفى التعليمي طويلاً ، وهو الذي شهدنا معه هول التراب وهو ينغلق شيئا فشيئا، وإلى الأبد عن الجسد البائد النحيل، هل كان محمد خضير يفكر في لحظة أخرى، لحظة غياب ستأتي على أحدنا؟وهنا لا يمكن تحديد نتائج الرهان والسبق، ولكي أقطع لحظته المرعبة سألته ما إذا كان قد اختار مكانه بعيدا عن أصدقائه، هناك في وادي السلام مثلا؟ قال : لا، هنا وأشار الى الرمل والحجر والشواهد التي تفرقت في المكان.

قبور كثيرة تحيط بقبر الشاعر محمود البريكان ،لكنها غير معاينة عندنا، فقد شغلنا بواجهته التي أنشئت حديثا ، مقاطع حديدية زخرفت ببساطة، لعلها من عمل حداد أخذ أجره ومضى، يبحث عن قبر آخر، واجهة خُط عليها بحروف لا تدل على عناية الكاتب-هو الذي كان يسحر عيون طلابه بخطه على لوحة الدرس- كتبوا اسمه وتاريخ وفاته، وسوى من طلاء ذهبيٍّ راح يبرق من اللوحة الصغيرة لا شيء يدل على مكانة وعظمة صاحب القبر، في اللحظة التي لا تعنينا مجموعة الشواهد والقبور التي تتبعثر حوله ذلك لأنه المقصود بخطواتنا الآن، هناك لحظة أخرى، تشبه لحظة غيابنا عن تشيعه، في ٢٨ من شباط عام ٢٠٠٢، اللحظة التي أُستعُملت على عجل ليدفن الشاعر، في غياب من بعض اهله وأصدقائه ومحبيه، هكذا بغياب صامت غريب لم يخطط له حشدُ المشيعين آنذاك، ليذكرنا بلحظة إنشاء ودفن قبر الشاعر بدر شاكر السيّاب قبل أكثر من ثلاثة ارباع القرن، ولأن المرور العجل على اكثر من قبر في لحظة قصيرة لا يمكّن صاحبُه من معاينة الموت أكثر، سيما إذا كان بين الزائرين معه من لا يعتد بقراءة اللحظات،كما أن وقوع المقبرة على طرف المدينة المزدحمة،-أنت تسمع جلبة الناس وأبواق السيارات وترى إنارة الشوارع- جعل من المكان أقل رهبة ووحشة، أكثر تعاطفا مع الحياة.ما تقوله حقا يا رينيه شار.

ولأن الوقت للتذكر أكثر منه لكتابة حية متطفلة بجوار الموت، تذكرت البريكان قبل نحو من عشرين سنة، وهو يمرُّ وحيدا، وخطى وئيدة، لا تكاد تسمع قرب تمثال بدر شاكر السياب، على شط العرب، وكنتُ على مبعدة منه، ورأيته يقلب طرفه الحييّ بالمعدن البعيد في السماء، نظرة من الامام، وأخرى من الجانب، ومثلها في الرأس والصدر واليدين، هل كان البريكان يقترح على السياب وقفة مغايرة؟هل فكّر فيه حياً ، في مقهى ما، أو في منزل ما، في بغداد أو البصرة، ام أنه راح يقلّب

لحظة موته الغريب في المستشفى الأميري بالكويت؟لم يدخل البريكان مستشفى ما، وما عرفت عنه شكوى من مرض، وسوى لحظات فزعه الأخيرة، لحظة تلقيه الطعنات، لم يشك من شيء، ظل صامتا، منطويا على أسئلة الوجود الكبرى، حتى لحظته الأخيرة.هذه التي تفصل بيننا الآن.

بصوت أقرب لليأس، يهمس محمد خضير بأذني ساعة خروجنا من المقبرة، لو أن مؤسسة ثقافية حكومية تعمل على جمع نثار مبدعي المدينة، ولملمة قبورهم في أقل تقدير، قلت هذه فكرة تنشئها لحظة اخيرة، نعم وتذكرت قبري التميميين جرير والفرزدق، وتذكرت الجاحظ والأصمعي والفراهيدي وابن برد وأبي نؤاس ورابعة العدوية، ولما طالت القائمة تذكرت من الأحياء والأموات ذلك لأن اللحظات تساوت عندي فقلت محمد ناصر، ونجيب المانع، ومحمد سعيد الصكار، وسعدي يوسف، ومصطفى عبد الله، وعبد الخالق محمود، وإسماعيل فهد اسماعيل، وصلاح جياد ومحمد طالب وحسين عبد اللطيف... لا سأقف عن التذكر هذه المدينة المتحف، هذه المقبرة المدينة، سلام على الذين فيها سلام على من ينتظر عند سياجها.

في مجلس الشبَّان الاربعة

وحيداً أتامل وجوهَ الحاضرين، في مجلس عزاء الشبان الاربعة، كانت الحافلة قد انقلبت بهم على طريق عودتهم من هناك، حيث تبرق في السماء قطعة صفراء. سَوّرة من نعاس الفجر أخذت السائق الى رملة بعيدة عن الأسفلت الاسود، الذي يصل البصرة ببغداد وبالاضرحة التي هناك، فلم ينج إلا من إنكسرت عظمة ترقوته، ومن تهشمت عظمة ساقه، وتشبث بمقعده حين توزع أصحابه الموتُ، هناك، حيث لا أحد في ما انخسف من الارض كان قريبا، ومع الشمس ودفئها تداككت الناس عندهم، فحملت النعوش ثانية الى النجف من حملت، وفرشت الاسرة البيض في الناصرية والزبير بمن فرشت، وهذا انا ابصر الوجوه ملثمة تبكي، والقلوب تتجرع الصبر وتصمت.

لا أكتب مرثية لأحد، لكنني باك قديم، وغارس ظلال وأفياء سود، ومجدّف على تواريخ أصنام شهير، أفردني الاهل في مجالسهم بكلام لا أحبّه، ثم قالوا هو يستعجل حتفه، وكنت من قبلهم قد حسمت أمري باختيار المثوى والمآل، غير مبال بما ورثته عن ابي انتساباً وانتماءً ، إذ العقل مثل النبوات لا يورَّث، فلطالما كرهت التماثل وأحببت الاختلاف، هذه الاشياء المتشابهة تصيبني بالقرف، تجعلني فاقداً نفسي- في الوجود والصيرورة، لذا سأرفع قبعتي للنجّار الذي اشتغل بازميله خزانة الثياب، خاصتي، فهو يخطئ في حفر الرسمة، وينحرف بمقشطته قليلاً، كلما صار الى مقبض

الباب، أنا أنصت لأزاميله ومقاشطه وهي تناظر القبضتين، تجعل الفروق كثيرة، و هي تجعل الاسباب خارج متن اللغة والبيان.

أبحث في ما أختلف من ملامح اهلي معي وأسعد، أكرهني متشابهاً مع أحد منهم، وليس بينهم من يحمل عني ثقل الكراهية تلك، يالتعاستهم يبحثون عن الكمال، الذي تواتروا على التعلق به، وينشدون حفظ ما دأب آباؤنا على حفظه والعناية به، يجلسون في المآتم باكين، ويخرجون بالجنائز ملثمين، ومع المنشدين النائحين ذاهبين بمآقيهم ، صائرين الى كل ما هو بليد وطحلبي، هؤلاء الاربعة ضحية منشد دعاهم الى هناك، فتركوا دكان البقالة، وأقفاص الدجاج بمكينة حت الريش الرطبة، اغلقوا باب دكانة الرز بادام الفاصولياء، تركوا كل شيء كما هي عادتهم دائماً، وذهبوا، لتنقلب المركبة بهم هناك، بعيداً عن النخل والشجر والافياء. يالقبح هؤلاء الملثمين، المنشدين، المفوّهين، ويا لبئس مانقلوا وقالوا وأذاعوا عن أشياخهم، يالهم ويالي، من أولئك الباحثين في هشيم أجساد الفتية الاربعة عن مرادهم وما يردم حفر البغضاء في أرواحهم، فيما الجمال مكنون في القلوب والاعين الغضة الوسناء.

أريدها ان تبلى أنيقة زاهية على اجسادهم تلك الثياب التي ملأوا الخزانات بها، أريدها أن تنخرق وتتمزق على الأرصفة والعشب أحذيتهم، التي مازالت تحت الاسرة، أريدها أن تنفد في المطارات والمتاحف وصالات الرقص والنساء النقودَ ادخروها في جيوبهم.. ولا أريدهم محشورين في المركبات المسرعة، هناك، أو متوقفين في مطاعم الطرق الرملية، ذاهبين أو عائدين، منتظرين دورهم في المراحيض القذرة، حيث تزكم الانوف رائحة اللحم بالرز والحمص.. يقول حكيم: الآلهة موجود الشرور ، التجأ الانسان إليها حين أبرقت السماء وداهمته الوحوش.. الطمأنينة وهناءة العيش لا تقودان الى المعبد.

على دجلة بفندق السفير

اتركُ معرضَ الكتاب، بعناوينه المختلفة، الى أولئك الذين يجدون ضالّتهم هناك، بين الكتب والنساء ونوافير الماء الملونة، ولا تأبه للغة مقدّم مهرجان الشعر السائحة، كثيرة المديح، هذه منازل يَعافها القاصدُ المتعجّل، زائرُ المدينة الخفيف، واذهبْ الى حيث سكنتَ ذات يوم، ادخل شارعاً ظليلاً، بأشجار تمسُّ اطرافُها قمرةَ الحارس، وتحدِّقُ طويلاً بعينيه الخافتتين، لتؤرخه كلماتُ اغنية عابرة، وقفْ هنا، لصقَ مبنى الجريدة، حيث تقف امرأةٌ هناك، تنتظر بائع اكياس المحارم.

أتذكر أنَّك اخذت عنها حقيبتها، وصعدت سلّم الفندق، أرهقتك درجاته السبع، لكنك بلغت مدخله، وأذِن صاحبُه لك بالدخول. وفي كابينة المصعد الضيّقة أخذتها اليك، دافئةً كانت، وبطيشٍ كثير.. على سرير من الخشب المطور بالورد، ازحت ثوبا من الكتان ازرقَ وقصيراً، وذهبت الى حيث تحطُّ فراشةٌ سوداء صغيرةٌ بين عمودي الرخام اللينتين.

في الازقّة المظلمة، ببغداد، التي يتصادى صوتُ بغاياها في الليل، مع أصوات الجنود وحاملي الرايات، بساحاتها المزدحمة، وبالمركبات المظللة التي تخطف في النهار، وفي طريقي الى الفندق، الذي تطلُّ حديقُته على الشارع القريب، من النَّهر، منذ أمس، تذكرتُ انني أقمت في احدى غرفاته قبل نحو من اعوام خمسة، كنتُ رفقة امرأة، أتت من مكان بعيد، من خلف جبال نائية، يزدحم على سفوحها مقاتلون ومتقاتلون، تحملُ حقيبة سوداء، وتتخفى وراء نظارة سوداء ايضاً، لا ما كنتُ وإيّاها

في غرفة واحدة، لكننا مُنحنا غرفتين، تفصل بينهما عين إلكترونية، ترتبط بسلك عند ادارة الفندق، هي مما استحدثته إدارات الفنادق، لمراقبة الداخلين والخارجين، وهناك، حيث يجلس رجل وقور، لا يسمح باجتماع رجل وامراة في سرير واحد، انتهزتُ عُطل ماكنة الكهرباء، وتوقفَ عين الكاميرا لكي أكون في مخدعها عارياً.

في الصباح أتيتُ لها بكوب الحليب، قبل أنْ تكملَ دورتها على كاونتر المائدة، وفي غفلة من أعين الذين تقابلوا على الطاولة معنا، أطعمتها الخبز ساخناً بالجبن، وبالبيض أحياناً، فكانت حبّات الزيتون الاسود تضيئ أسنانها، ومن زرٍّ في قميصها، أهملته، عارفةً بحقي، رحتُ أطالع شكل الحلم، وهو يتكورُ ويستطيلُ غامضاً، شكل القبلة على الحلمة، وهي تختلف على داكنين، تكزبرهما نسيماتٌ، تفلتت من عطل في النافذة. هي تترك شعرها مرسلاً، مثل قصيدة بلا نهايات، وانا ألقمُ الصبر ناراً وانتظرُ، أرعى في برية الظنون ما أرعى، حتى إذا أفاض النزلاءُ من بهو الفندق، وهبطوا درجاته السبع، وذهب كلٌّ الى غايته، أظلتني نخلتان ببابه، وأسمعنى عاملُ الخدمة كلمة رضاه، جاءت، أخذَنا الطريقُ الى باذخ من العشب، وأصلحتْ مجلسنا عليه، فكان نهار، وكان مساء، وجاء ليل.

هناك ما لايُستدعى بالتذكر ، ولا يذهبُ بالنسيان. ولا يتحققُ في حلم ، ولا يُحمل في حقيبة..، عطر امرأة هبطت الجبل الى الجنوب.. فهي تصعد قطاراً متخلفاً الى البصرة، لو أنَّه مرَّ ببغداد للصَقَ الاطفالُ رسومهم عليه.. كان توقّفَ باسطنبول، ودمشق، وطهرانَ قبل سنوات تسع. أمّا صوتُها فقد ظلَّ حياً، حيّياً رطْباً، ومتناغماً، مع صوت الريح وهي تعبر، والمطر وهو يهمي دهماً، والستائر وهي تومئ في غرفة بالطابق الثالث، بفندق السفير على ابي نؤاس، حيث كان السينمائيون يحتفلون بعيدهم المئة.

1

من أجل أن تنأىٰ بنفسك عن هذه وتلك، كان لك ان تتخذ من جذع نخلة، في أقصىٰ سباخك متكأً، تحدث انسانك الذي فيك، بحديث الماء والقوارب والاشرعة الهاكلة. هذه أرض عزَّ علىٰ ساكنها الصبر، هذه بلاد يقرض أمنها قوم لا يؤتمنون، وتفرض قوانينها علىٰ ضعفائها، بينهم من يرفع ذراعه عالياً، مع صوت طبل كبير، بغيته أن يدخلك الرعب الذي نأيت عنه، وآخر يشجُّ رأسَه صاحبُه فيرعبك، فلا خير في من يجيئك بحديث مستل من كتاب أصفر، لا ليضيئ وجهك بنوره، إنما لكي تُسلم الروح علىٰ يديه، هذه بلاد إن أحببتها قتلتك ملائكتها، وإن غادرتها تركت عيالك فيها للسبي والمهانة.

لا تكتب في صفحتك ما تريد، لئلا يقرأ صاحبُ ابنك ما كتبت، ولا تنشر صوراً ملونةً تضمك والنساء، فهذا مما لا يليق بك أباً وجدّاً، لك من الحفدة والأسباط ما لك، لذا تجرّأ واحذفْ صداقتك مع ابنك وشقيقه، وزميله ورفيقه، لئلا تحرج احداً منهم، فقد أصبحنا عار أهلينا كما وصف "طارق الّشبلي" نفسه ذات يوم. ولأنك ماعدت من الملة بشيء، بحسب وثائق هؤلاء وأولئك، سيتوجب عليك السماح لأحدهم بأن يغرز بيرقاً، يخالط السماء، أعلىٰ الدار، وليترامحَ طولياً مع النخلة ولاقط الانترنيت، ولا بأس بان يعلوه أكثر، فهذا زمان يُحترم فيه من علت بيارقهم،

وكبرت قدورهُم، ومُلئت بالرز واللحم صِحافهم. لذا، ومن أجل عيون أبنائك، وزوجتك، وكنّاتك، وأحفادك، وأسباطك إجعل من صوت الـ دي جي عالياً، ولا بأس بشيئ من الرماد قرب الباب.

إياك والازرق من الثياب فانه لون الموسيقى، وإياك والابيض أيضاً، فهو صوت القادمين من المسرات، كل جدار في المدينة اسود، وكل الحدائق منزوعة المباهج، فلا تفزع الشجر بصوت فيروز، واترك النفايات قرب باب الدار، هذا يوم للكمد، وعمال النظافة لا يستعجلون رفعها اليوم، هم في سبخة من الارض ينتظرون، لا تقل لصاحبك صباح الخير، عن أي الصباحات تتحدث، أخف كيس المكسرات عن عين زوجتك، هي تريدك واقفا مع حشد الواقفين، بين الأثافي، توقد، وتجمع، وتحصي، وتتجهم. قل لأبنك ألا يضحك، علّمه كيف يراكمُ الدمع في مقلتيه ويبكي، علمه ألا يمشط شعره، وليمتنع عن محاورة طلاب الموسيقى، وليذهب ضياء غرفته الى دارة أخرى، غير دارنا.

من النافذة تسمع الطبولَ متجردة من الرأفة، وصلصلةَ السلاسل وهي ترتطم باللحم، تنزعه أحمرَ وسخاً، وفي الزجاج ما يرتطم بقلبك من الحديد، فينغلق بابٌ أطلت تشرعه للسلام. احدهم يتسلل بمدية الى حديقة روحك، أكثرُ من مدية ترفع بين البتلات، والظلام يرين، هناك من اطفأ مصباحاً، وأكثر من واحد لا يأبه لانطفاء المصابيح على العشب. اتخرج؟ أتجرأ؟ وأنت شلوٌ رفيفٌ وآس، كن في الغرفة الاخيرة من البيت، وأغلق النوافذ كلها، إجعل يمينك على يسارك، وظهرك الى بطنك، وأمامك الى خلفك.. وتدثر بقصيدتك الاخيرة، أكمل كتاب أسمائك، الذي ابتدأته الشهر الاخير، وأحمل الى وسادتك ما شئت من الاحلام، هناك، في الظلام الذي يرين، من لا يعثر عليك بين الكتب والمماحي الكثيرة.

2

وفي المدن التي نتلطف بخصورنا على جسورها أحياناً، في القرى النائيات، حيث يتهجى المهربون اسماء المخافر على آمادها، وحيث ينغلق الليل على شبكة صياد غريب، ولما يئن للقمر بعد مصارحة الموج.. في المدى الموقوف على التذكر والنسيان، وترديد ما لانملك اسماءه، هناك، سنقف طويلاً، نعم النظر في قوارب الآتين، قوراب الذين عبروا، وتركونا على امتداد القصب والأبقار الصاخبات، لا نعرف جهة في الصمت، سوى ما ترسمه المجاذيف على الماء. هناك.. حيث أهملنا كل شيء، هل سيتسنى الوقت لنا لنقول كلمة تأخذها الريح، التي تهب من الجهات كلها الى جهاتنا الاربع، هل يمنحنا العابر المتعجل فرصة أن نجلس على الجذوع الرطبة ذاتها، نمسك بما تحدثه الاقدامُ على العشب، وقد غادرهُ الذين نحبهم؟

ظل صاحبي يهمس بي في الخندق الذي حفرناه معاً، في غابة النخل المقابل لعبادان، حيث كانت القنابر تساقط في ما بيننا : لا اريد ان اموت في حرب على الحدود، لا أريد أن أموت، الموت هو الموت ذاته، بأسمائه كلها، سواء أكان على جبلٍ، أو في مستنقع، في بريّة حفْر الباطن، او في جوف الرمل. حتى الموت على الحدود لم يعد مشرفاً ،كما كان من قبل، هناك خلل ما في تركيبة الانتماء، في مادة المواطنة، وفي كيمياء اللغة والجسد والرعدة بعد الفعل الجنسي، هناك من يعبث بفيزياء الروح، فأنا لا أنتمي لأغنية باردة في المذياع.

وفي لحظة أزعم أنني اخترتها له، كان صاحبي يصيح بي:.. ولا اريد ان اقتل في نزاع عشائري/ كل الذين قتلوا هناك كانوا من عشائر محترمة، هو لم يذهب في فلسفة الاحترام بعيداً، لكنه قال، وهم محترمون بموتهم بالتاكيد، لكن، ماشأني أنا بذلك؟ فأنا بلا عشيرة اصلاً، وانا رجل من عامة الناس، أحب من النهار كل ما تشرق الشمس عليه، مثلما أحب من الليل ما يتعصفر في الافق، ساعة تغيب، فلا يشركني احدٌ في ما خلف السدة من الموت، فقد عبرت القناطر كلها الى بيتي، في قطاع بالثورة او بالمدينة.. مخموراً، ولا أريد ان يتخطفني احد افراد المليشيات، انا لا انتمي لايٍّ حزب، ثم من قال لكم انني وطني، ابداً ، وأنني خرجت في تظاهرة؟ انا بلا وطن منذ سنوات.

ولأنني بلا وطن كما يعرف الجميع لذا لا اريد ان اقتل في شجار على جاموسة، و لا على كلب حتى، من انا كيما اقتل هكذا؟ خذوا الجواميس كلها، وخذوا الذئاب وأسود البراري والكلاب والديكة ايضاً، هذه بضاعتكم، لا اريد ان ينتزع احد مني حقي في الحياة، فانا ساهبه ذلك طواعية. ثم من قال لكم انَّ لي حقاً في حياتكم هذه؟ لا اريد ان اسجن بسبب من قضية شريفة، او غير شريفة. إذ كل سجين سيتقاضى راتباً. وهذا ما لا اريده. انا لن احرق اطاراً في شارع، ولن اقتحم مصرفاً، كل الذين قاموا بذلك استحقوا القتل وصاروا شهداء وتقاضوا الرتب والرواتب.. لذا اخشى ان أحسب سجيناً سياسياً. لا، لا.. أريد ان اموت في قضية شريفة واحدة ، مثل ان اسقط من نخلة، او اقع في نهر، او يعثر علي متلبساً بقراءة قصيدةٍ في حانة للغرباء.

التراب دالّة الوقت

يوصِدُ البابَ برفقٍ من لا ينتظرُ أحداً، ويركنُ عصاه جانباً الاعمى، الذي يحتضر الآن، وستظلُّ السماءُ غبراءَ داكنةً بعين النَّسر الجائع. على اليافطة القديمة بواجهة دكان البقالة ما تغافلنا عن معاينته، هي تفصح عن حاجاتنا، والرجلُ مهموم يصنِّفُ الارففَ، بحسب مقتضى يده. علبُ الجبّن قريبة، وشرائحُ السمك أبعدَ قليلاً، والخضارُ باردةٌ تنوشها العين.. في الليالي المظلمة، ساعة لا يُشغلنا خبرٌ عن الحروب والاوطان الضائعة، وحدها أوراقنا المكنونة تتقلبُ في درجنا السريّ، مصباحٌ خفيٌّ يخبرنا قائلاً: ما ننساهُ أكثرُ مما نتذكره". يا للحماقة، نحن نقرأ الكتبَ معتقدينَ بانها قادرةٌ على تفسير الحياة، كما لو أنَّ ما نجهله قابلٌ للتفسير بكتاب، فيما الاسئلةُ البلاغية بلا إجابات دائماً.

"هنيئاً لمن، وهو عاشقٌ، امراةً تقيّةً / يسكنُ بيتَه في وطنٍ معروف/ عنئذٍ، في أرض ثابتةٍ/ تُضيئُ له، وهو الرجلُ المطمئن/ سماؤه بصورةٍ أجمل" هكذا، يغبط هلدرلن من يسكنُ بيته، في وطن مسمّىً، إذ أنَّ السعيد هو ذاك الذي يسكنُ بيته ! كيف يفهم الشاعرُ هنا قضية جوهرية مثل البيت؟ ترى هل نحن سعداء، مطمئنون في بيوتنا؟ إذا ما توافرت لدينا سبلُ الحياة والعائلة، وهل نُعدُّ جدرانَ البيت ضامنةً للحديث والحوار، وعادلةً باقتسام التفاصيل مع الآخرين؟ فيما الوطن الكبير غير معرّفٍ لدينا بعد، الوطن المظنون به، بحسب ما تشي به أبيات هولدرلن. يا لفزعنا

من الجدران التي لا تجيب، ومن ترادف الصوّان والحجر، من اصطكاك الابواب، وعتمة النوافذ، ما أوحش الاسئلة.

أتلفتَ الاحرفَ، حين أردتَ ترميمَ شاهدِة قبر أبيك، الذي تشربَ الترابُ لحمَه قبل أربعين سنة، فامحتْ الكلماتُ، واختفت المعاني. أسماءَ الآباء والأجداد، مقاطعَ من آياتٍ، وكلماتِ مديح، خطَّها غريبٌ لا يعرفه، كلَّ ذلك أتلفتَه: قالت الرِّيحُ، إلا اسماً واحداً، لم تنلْ منه جهالةُ يدك، فقد تسرب في الضوء، وتقاطرَ في الظلال، ثم اختفى. أمسِ، فتحتُ قراطيس العائلة، وقلبتُ أرففَ السلالات، صرتُ قطرةَ حبرٍ عملاقةٍ، وتسللتُ في المعاجم، أبحثُ في المَضان عن اسمٍ أتلفته. كيف أتيتُ بيدي على ذاك، لا أعرف، لكنَّ المعنى ظلَّ في مكنون الشاهدة ساكناً، لا ترفعه الافعالُ، ولا تخفظه المُضافاتُ، يُبصرني ولا أبصره، أحاوره ولا يجيب، أذكِّره فلا يتذكر... الخيبةُ، كلُّ الخيبة أنْ تتجاسر ممحاةٌ تجهلها على معنى تجهله. قالَ طائرٌ رآني على الحيرة تلك: الاسماءُ لا تُمحى أيها الغافل، هي تتخففُ عن معانيها حسب، فتزيدها الأسئلةُ وضوحاً.

في الغابة المغلقة، ليست غابة هيدجر السوداء، إنما غابةُ الماء والنخل والحلفاء، التي كانت لنا، كثيراً ما كنّا نسمع صوتاً لطائر الحَجل، يأتي من مكان بعيد، فيرنِّم وينغّمُ مقولةً، بدت لنا بالمعنى هذا (سكّين براسك طبرٌ) فكنّا نرددها معه، نحن، صِبْيةَ الايام تلك، لكننا، قلّما نراه، أو نمسك به، فهو طائرٌ زئبقي، نبحثُ عنه فيختفي، ونتعقبه فنضيع، كانت الحلفاء ضامنة لأختفائه. في المساءات، وفي النهارات أيضاً، وحين ننسى وجوده بيننا،غالباً ما يُفزعنا بطيرانه المفاجئ، لأجنحته وهي تضربُ الريح صوتٌ يشبه خضخضة الريح بالماء، شيءٌ من رفرفة ودوي، فنجفل فزعين. بالقدر الذي كنّا نأنس بصوته، وهو يردد جملته الاثيرة تلك، كنا

نبحثُ عن لحظة الخضخضة أيضاً، ساعةَ يطول اختفاؤه وصمته. أمرٌ مقلقٌ حقاً ألّا تانسَ ولا تفزعٌ.

فرَّط صاحبُ البلدية بالكثير مما كان لنا، يوم أطلقَ الجرّافات، أثناء حملته التي قضت بتبليط الدروب والسكك في القرىٰ النائية الصغيرة، كان عليه أنْ يبحث عن مدوّني الوقائع اليومية الصغيرة تلك، وعن راسمي الخرائط، القادمين من منازلهم، والآيبين منها أيضاً، أولئك، الذين دوّنوا علىٰ التراب بأقدامهم حكاياتٍ لا حصر لها. كان الفتيانُ في قريتنا سراقَ كروم وتمر وأجاص، لذا ظلت أبصارُهم مسمرةً في التراب، تبحث فيه عن الذين غادروا منازلهم، وعن الذين مازالوا هناك، وقد تقطّعت بهم أسبابُ الاوبة، يقرأون تواريخ الذهاب والاياب في آثار أقدامهم علىٰ الدروب تلك. سأسمي الترابَ كتابَ رحلةِ الايام، وما يتطاير منه دالةَ الوقت. الترابُ قراطيسُ الناس التي تمحىٰ بالذهاب والاياب، هو الزمانُ تعافه يدُ التحقيب.

اليوم، أقفُ علىٰ الجسور، التي كانت طيناً وسعفاً ، أبحث في الآجرِّ الصُّلبِ عن اليد التي إزاحت الترابَ ذاك، وسوّت السُّبل الىٰ تنحيته والخلاص منه، وحيثُ تطالني قسوةُ الوقوف أقولُ للماء: كنتَ طريقاً طاهراً، والقواربُ تنازعك حيازيمها. أقول للطين كنتَ تمدُّ روحك لتَلاقي ضفتيك، تتصلُ بما كان متصلاً، ترأبُ فتقَ الارض، فيما الماءُ يتوسطُ الترابين، عذباً، غريناً. عن أيِّ الايدي أبحثُ اليومَ في ما أمسىٰ لازباً اسودَ وصُلباً، عن أيِّ المعاول آخذ غضبَ الجذوع، عن أيِّ الخشب أداري صمتَ الشجر؟ عن أيِّ المناجل أرسم هلالاً.. وقد تعظَّم كلُّ ما كان لحماً، وتراجع كلُّ ما كان ماءًا. هذه الفسحة الضيقةُ تتعجلنا الىٰ جوفها، وهم يصلون الحديد بالحديد، والاسفلت بالاسفلت. ما أجمل فتوق الارض، ساعة ينزُّ كلُّ رتق، ما أبعدني الآن، وقد عزَّ عبورٌ، وقد خذلني ماءٌ صاعدٌ، وقد أنحسرت ظِلال.

في الممر المعتم الطويل

ما كان لبنّاء الفنار على ساحل البحر ان يتصور شكل الطائر الذي سيحطُّ عليه اليوم، ليبدو المشهدُ جميلاً هكذا، ومثله كان مصممُ برج الكنيسة، فقد ترك أسر اللقالق، حيث تحطُّ وتسكن بصغارها البيض آمنة. المشهد الآن جزءٌ من نسيج معاينة العابرين، الذين يرتفعون بأبصارهم عالياً ، كذلك، يفعلُ مهندس منارة المسجد، وقد طرّمح بها عالياً، حتى خالطت الفضاء الازرق، بهلالها الوحيد ومصابيحها المئة، ويفعل الشيءَ ذاته، عامل طلاء قوارب النزهة، على البحر القريب، هذا، الذي لم يكن ليختار ألوانه الجميلة هذه، لولم يكن الماءُ أزرق شذرياً. نحن، نتأمل الزاوية باذخة الطمأنينة، دونما وعي منا بتناسقها، ما أجمل ما نجهل إذن.

في المطعم، الذي أخرج نادلوه بعضاً من مقاعده على الرصيف، الذي يمتد طويلاً، لصق القناة، بمدينة سيتا الفرنسية، حيث كنت هناك، وجدتني مأخوذاً بتناسق المقاعد الزرق مع الطاولات، ذات الشراشف البيض، وبالمناديل التي جعلها النُّدل على هيئة زهرة اللوتس في الكؤوس. كانت الشمس طفلةً على الماء، ولمّا يدخل المطعم أحدٌ بعد، فقد ظلَّ كل شيء على حاله، كما أريد له ذاك الصباح. لم يكن النادلون بزيهم المشترك وبطرابيشهم خارج المشهد، ابداً، كذلك كانت امراة الكاشير على آلتها، وبتسريحة شعرها الاشقر، وبالأساور التي تزيّن يدها، مع اسلاك الهاتف والقطع النحاسية، التي تمنع تطاير الاوراق. كل قطعة في المطعم كانت تتعالق مع القطع الأخر، في ودٍّ هارموني لا أظنه كان عفوياً، حتى بدا لي انَّ المصباح، غير المضاء، في الممر، الذي يفضي الى البار، كان مقصوداً، أيضاً هنالك مساحة معلومة للظلام، تشيأتْ لتكون العلامة الفارقة في المكان.

ليتني عرفت اسم الفلاح الاول، الذي غرس الورد الجهنمي، الاحمر او البرتقالي منه، وسوّر المنازل به، وجعلها جميلة هكذا، كان عبقرياً بحق، هذا الذي أجبر عمال الطلاء على ان يكون اللون الابيض وحيداً لها، وأظنه، هو ذاته، الذي قال لنا بأن نجعلها واطئة، بعض الشيء، لئلا نحرم المارة من التمتع بمنظر العشب والورد وشجرة الأكاسيا، التي تطل بزهرها الاصفر منه، هلا تحدثنا عن الذين ابتكروا القرميد، وكيف اهتدوا الى اللون الفارع، الذي لم يسم من قبل في قائمة الالوان، وكيف جعلوه مائلاً، ليغسله المطر.

نحن، الشعراء، لا حياة لنا خارج الاشياء هذه، هي تتشكل وتتكون، بوعي منا أو بدونه، وما علينا إلا أن ننحني للإنسان الغامض فينا، هذا الخلّاق الكبير، وعلينا ان نصغي طويلاً للطبيعة، وهي تتكشل حولنا منذ ملايين السنوات، ثمة ايديولوجيا مشتركة بين الطبيعة والانسان، وأن جملة من لغات مبهمة تناوبا على تداولها معاً، نحن نتسلم بديع ما حولنا بهدوء، في عالم لا يخلو من العابثين.

يحدثني أحدهم عن دبي، المدينة العملاقة، بشوارعها وساحاتها ومبانيها وبحرها والتجارة التي فيها والوجود الانساني المتعاظم يوما اثر آخر، فلا يخفي خشية عليها، من اندلاع حرب جديدة في الخليج، بسبب التوتر الازلي في الشرق، فليفت نظري الى جوهر قضية كهذه. لكنني، فزعاً أقول: لا، لم تعد المدن خالصة لأحد، وما نحن في جوف مكوك غير متقن، يطلقه جاهل أحمق. المدن الجميلة منها وغير الجميلة أيضاً ملك يمين الانسان، أما قضية تدميرها فهي غير قائمة في عقلي. الوجود الانساني باهضٌ، ويستدعينا بوصفنا نتاجه، لأننا لا نملك الوقت للعودة الى الكهف ثانية. كان نادل الحانة يضع يده الشمال خلفه، وهو يملأ كأس النبيذ باليمين، كنت أتأمل انحناءة جسده، وقطعة القماش التي يلفّها على خصره، ولما غادر وابتلعت الظلمة نصفه الذي يلي شجرةَ الاترج سمعته وهو يصفّر سعيداً.

الشاعر في بريّة خلوده

ذات يوم سيجلس الشاعر في بريّة خلوده الكبرىٰ، أمام شاهدة قبره، يقرأ الكلمات الشوهاء التي ظنوا أنها مجّدته، لن يكون معه أحدٌ حينئذ، لذا سيبحث بين الحجر عن قبضة الريح التي تعصف بالوجود من حوله، وسيصغي للأنام العابرين، الذين طواهم الليل بترداده الطويل، والذين لم يطوهم بعد، ليكتب القصيدة الأخيرة، القصيدة التي أرادت كتابتها الآلهة العظيمة في سومر وبابل ونينوىٰ، في أثينا وروما وفي ممالك العالم السبع، لكن قصيدته هذه ستكون بلغة عصية أبداً، هذه المرة، لغة من غبار وأكف تلوح عارية، من قبل ومناديل وداع ممزقة، هي مزيج من شجن وآلام وتعاسات، القصيدة هذه تعني العدم والفناء والنهايات السعيدة للوجود، سيبدو معها أنَّ كل ما كتبه الشعراء، منذ جلجامش وهوميروس إلىٰ لحظتنا الباهرة اليوم، إنما كانوا يكتبون الحياة، حياتهم التي هي في التراب الآن، وبين لحظة الحياة في الشعر والشعر ذاته تكمن قبضة الريح، يكمن الألم وتندحر النهايات.

الفِتيانُ أنيقونَ بزيِّ المدرسةِ، لم تتعجلهمُ الشمسُ، ظلت تنزلق باردةً بيد الأفق الندي، لذا فهم خفافاً، يمضونَ علىٰ الجادَّة التي تضيقُ عندَ عربةِ بائعِ الفاكهةِ، هو يغسل بالماء والزهر سلال الليمون والتفاح والكرز، فيما حقائب الفتيان تميسُ علىٰ الأكتاف النحيلة. ولأن الوقت مجز للأمل وقطف اللحظات فقد بدت الظلال طويلةً، ذلك لأن رهطا من الصبيَّات، بالجينزِ رحن يتطاولنَ مع الرصيفِ، كلٌّ خَصر نحيلٍ شجرةُ جَوزٍ تميس،كل ابتسامةٍ موعدٌ إلىٰ الليل..

كنت واقفاً في النافذة ،أضمُّ لياقةِ القميصِ أذنيَّ، أُصغي للجبـلِ يـأتيني في لفحـةِ وطفاءَ من البرد، فلا أحصـي العيونَ الزرقَ، لا أُحصـي المناديـلَ مضـمخةً، ولأنهـا من أرغفةٍ وحليبٍ تجلببتِ الريحُ الستائرَ ،فلا أُبصـرها بين الطاولات.

يقولُ بائعُ دفاترِ الأيامِ، كـان يمسـكُ معطفـاً أصـفرَ : في المعسـكرِ الـذي صـارَ مدرسةً، لا يقرأ الصِّبيانُ بالعربية أسماء الجنود الميتين، وفي مذياع العربة، كذلك، وفي المآذن التي تعلو على السفح، وتتضاءل بين الأودية.

ربما لا نعي ما نكتب ساعة نجلس إلى طاولاتنا، نحن الشعراء، ذلك لأن الشـعر يختلف تماما عن الاحساس به، وغالبا ما نسمع من شعراء وكتاب كبار أنه لا يـروق لهم الحديث عن الشعر،او كتابته، في فهم حقيقي للحظة الكتابـة، اليـوم عـلى سـبيل المثال، نشـرت إحدى الصحف فصلاً من كتاب كنت أصدرته قبـل نحـو مـن سـتة أشهر، لكن نشوة إصدار الكتاب وضيق الوقت حالا دون تصفحي الكتاب وقراءة فصوله، غير أني وفي صباح ربيعي كهذا اليوم، الذي يحتفل فيه العالم بالشعر تمكنـت من قراءته، أي قراءة، لم أشعر بأني حقا كنت من كتب الفصل القصـير هـذا، الـذي أعادني إلى لحظة الكتابة، هكذا ودونما إحساس بالخجل من أحد، دونما رؤية من أحد وجدتني أبكي ، ثم اجهش بالبكاء، كان الذين معي في الغرفة نائمين، ولم يتنبه لي أي منهم ،لم يلحظ دموعي أحد. تذكرت الشاعر الذي جلـس عنـد شـاهدة قـبره بـين البرية.

يبدو لي ان قضية الشعر تختلف عن مجمل الفنون الأخرى، الشعر اليوم، الذي بتنا نخجل من تسمية أنفسنا شعراء، بعد خراب اللحظة، اللحظات الحقيقية، ذلك لأننا وحتى وقت قريب كنا نستهجن أو نسخر من أحاديـث تقـول بـأن فلانـاً الشـاعر،

ذهب إلى عين الماء ليكتب قصيدة، أو وقف على ضفة النهر ليتأمل جريان الماء وليكتب، أو ان الشاعر هذا كتب القصيدة هذه حين كان قمة جبل تطل على شاطئ البحر ، باسبانيا، أو كان الشاعر قد كتبها وهو جالس في حديقة القصر وهكذا، وبقدر ما تبدو لحظة كتابة القصيدة استثنائية، أو خارج منطق الحياة اليوم، هناك قدر كبير من الصحة، وبرأيي هي لحظات كبرى أنتجت لنا نصوصا لازلنا نحتفل بها إلى اليوم، ترى كيف كتب لنا هؤلاء القصائد العظيمة إن لم تكن لحظات الكتابة استثنائية.

لنعترف، نحن نعيش أزمنة سريعة، انعدمت فيها لحظات التأمل، والشعر ابن البطء، ابن اللحظة الواقفة، لذا قلَّ الشعراء، وانحسر دور الشعر في حياتنا، هناك سعي من كثيرين، رجال سياسة واقتصاد وعلوم، ومعهم آخرون لإيقاف عجلة الحاجة للشعر، وتأكيد عدم أهميته ،ساهم فيها شعراء فاشلون بكل تأكيد، وتبدو الصورة أبشع في ثقافتنا العربية، أمر مخجل أن يُصبح الشعر نافلة، غير منصوص عليها، وتكون القصيدة حاجة من لا يدخل سوق التأمل والجمال، مهنة من لا مهنة له.

في الصباح الذي يهبطُ كسولاً ، قطراتٌ من مطرٍ أنيقٍ، تمزّقُ زجاجَ المركبة، يُسرعُ السائقُ بنا،ي صعدُ تلةً،كانت حِصناً وبنادقَ روسيةً. ولكأنهُ لم يأتِ من غيمةٍ واحدةٍ يلوّنُ البَرَدُ الإسفلتَ الذي أخذنا بعيداً، كانت الغرانيقُ نائمةً اليومَ، ومن أسمائها لم تتفلتِ الطرقات بعدُ، لكنها يقظةٌ-الحدائقُ- التي تبلُ الشمس أطرافها يقولُ جنديٌّ وقفَ ينظِّمُ عبورنا:

لم يتركِ الثلجُ أثراً لهنَّ،كنستِ الريحُ التي أثلجت البارحةَ ذكرىٰ سراويلهن، ذكرىٰ أقدامهن العَجِلات، هكذا تفعل السحبُ الثقال، تركتِ الرعاةَ خلفَ الجبل، لأن المساء حلَّ سريعا، تقول إمراة عاشقةٌ لجارتها من قرية أعلىٰ الجبل : قفطانٌ واحدٌ لا يكفي لقضاءِ الليلِ، لذا يتخذ الغرباء خمرتهم باكراً.

في مثل لحظات كهذه، حيث الشعر مُتاملاً في كلمات، لا يجب الحديث عن الشعر، لأنَّ هذا كلام في مفسدة له، ولا ينبغي للشاعر التحدث في الشعر أو عنه خارج شعوره بلحظة الكتابة، وهذا ما يتعرض له شعراء كثر عبر وسائل الإعلام، ساعة يجبرون علىٰ الحديث، لأني أجد أن أسئلة من مثل متىٰ تكتب ، وكيف، ولماذا وأين، وإلىٰ... وسواها تبدو مثل سكاكين حادة تغور عميقة في الوجدان الشاعر، الشعر لا يُكتب عنه، الشعر يُكتبُ حسب.

لذا كانت ولا زالت أمم وثقافات كثيرة تُنزل شعراءها منازل الآلهة والنبيين، وهم محقون في ذلك، ذلك لأنها ثقافات وأمم حية، وقد روىٰ لنا مشاركون في مهرجانات عالمية للشعر قصصا تفوق الخيال، منها أن الجهة المنظمة تعلق صور وقصائد الشعراء علىٰ واجهات المنازل، والأماكن العامة، وصورة الشاعر في ثقافتهم غير صورته عندنا، لأنه مخلوق مختلف، هم يعتقدون بأن الشاعر وجدان عابر للمألوف واليومي والرخيص إلىٰ كل ما هو جوهري ونفيس. أليس الشعر كذلك؟

الحبُ في البصـرة، والنبيذُ من أربيل

ما كنت لأصدِّق بوجود إمراة عراقية يبكيها الحبُّ، حدَّ انعقـاد اللسـان واحمـرار العين وهطول الدمع، قبل أنْ ألتقي توتة، في المركبة الصاعدة الى أربيل. هـذه البنـت التي امتنعت عن الطعام والشـراب على الطريق الطويل بين بغـداد والبصـرة، هـي التي لم تغادر السيارة إلى دورة المياه، حين أوقفنا السائقُ في باديـة السـماوة وخرائـب بابل، فقد ظلت تبكي، وتبكي بما لا يمكن وصفه، وكلما بكيت اكثر صـارت أجمـل، أجمل. كانت توتة إمراة في لكنتها شيء من كلام أهلنـا في الغربيـة، جـاءت البصـرة مستمتعة بحبيبها على كورنيش شط العرب، في المكان المتغير جغرافياً. كانـت تنشـد زمنا غابراً حدثوها عنه، لكنني، ولكي أرفع عن كاهلها بعضا من جبل الحزن الـذي ظلت تنوء به، طلبتُ منها أن تقول شيئا عن سبب بكائها هذا، فقالت: أبكي الحـب والصدق والوفاء، أبكي صديقتي التي خانتني، وسـرقت حبيبي. يا ألله، أفي العراق من مازال يبكيه الحب؟ وينشد الوفاءَ، ويبحث عـن الصـداقة؟ وكنـت ظننـت بـأنَّ الناس خرجت من هذه وتلك إلى المقابر والطوائف!

كان ذلك في خريف العـام ٢٠٠٦ بعـد أنْ ذهبـت توتـة الى أحزانهـا، وأسـلمت جسدها للغضب والملامة، ولما كان الليل باكراً فقد أخذني صديقي البصـري، الـذي يستثمر في أربيل مشـروعا إلى ضاحية عينكـاوة. وفي حانـةِ جميلـة، رَحْبَـةِ الحديقـة، أختار النادلُ لنا مجلساً بين الأشجار، سألَنا ما إذا كان بصحبتنا نساء أم لا ، كيما يختار لنا مكانا أفضل، ولعله أراد ان يجلسنا في زاوية ما من الحديقة المسيجة بأنواع الـورد، التي تُشـرفُ على المكان كله، لأن المطربة اللبنانية التـي أعلنـوا عنهـا الليلـة سـتغني اغاني بالعربية اولاً، وهكذا كانت الليلة واحدة من أجمل ما تمنيته منذ سنوات.

ولأنني شيوعيٌّ قديم فقد طلبتُ نبيذاً أحمرَ، لكن صديقي (صاحب الدعوة)نصحني بشيءٍ آخر، وراح يعددُ الانبذة والاشربة والطعوم (تركية، ألمانية، هولندية) فنزلت عند رغبته، فكانت الجعّة هولندية، يفوحُ الرَغَدُ والسرور من زبدها، تُسر عينَ صاحبها، وتبهج قلبه، وتنقّي كليتيه، كان النادلُ يقف على منضدتنا باسما، مقترحا علينا نوعا من الطعام، حتى انَّ طاولتنا ضاقت بما فيها من الطعوم والاشكال، ياه... ما أطيب الفُقاع في بلاد الكورد، كان العربُ الأشرافُ والوضعاءُ من القرشيين والأمويين والعباسيين، والذين تعثمنوا وتفرسوا، فتعثمنوا وتفرسوا ثانية وثالثة ورابعة إلى أن تقطعت دولتهم إربا إربا يشربونها في البصرة والكوفة وبغداد وسامراء وعقرقوف، ومن قبلهم كان العراقيون البائدون في بابل وسومر ونينوى يشربونها مع آلهتهم ونسائهم وجواريهم وأسرى حروبهم ومحظياتهم ترى ما لذي يجري في البصرة اليوم؟

في الليل بعد عودتنا من الحانة البرحة تلك ظننت بانّا آخر من تعتعهم الليلُ فعادوا، لكنني فوجئت بانَّ نزيلات ونزلاء بصريات وبصريين لمّا يعودوا من ليلهم بعد، قلت لعل التبضع من المُولات الواسعة الكثيرة أغراهم بالتأخير هناك، لكنَّ ظنَّي طاش فقد عادوا، متعتعين، وضاحكين، ومسرورين، وفرحانين قلت: اللهم أدخل على أهلي في البصرة المباهج والسعادات، وأحفظهم، وأعدهم إلى اهليهم سالمين غانمين، لا صاحين ولا سكرانين، وفي صالة الفندق التي ضاقت بضحكهم وقفشاتهم لم أرَ بينهم من أساء، أو تجاوز، صاروا أرقَّ وأبهى وأجمل وأطيب حديثا، وكانوا كرماء بينهم، متسامحين حد الغفران. تذكرت طبائع الخمرة التي كانت تتحفنا بها كتب العربية، والتي منها اللطف والرقة والعذوبة والسخاء والحب والنسيان والصفح، لكن توتة ظلت شاخصة أمامي، في مضجعي، بغرفة الفندق، ظلَّ الحبُّ غمامة بيضاءَ معلقةً بالسقف حتى اخذتني سورة النوم.

الاسَّوَدُ لا يليق بأحد سواك

في البلاد التي نذهب اليها، نحن هواة السفر في الصيف، غالبا ما تراودنا فكرة المقارنة بين سعر الدينار العراقي وسعر العملة في البلاد تلك، ساعة نذهب للسوق، لكن أسوأ المقارنات هي التي تأخذنا بعيداً باتجاه سلوكنا، سلوك الموظف في المطار وسكك الحديد ووسائل النقل الأخرىٰ، او سلوك باعتنا وطريقة عرضهم لبضاعتهم، التي تأخذ الرصيف وتتجاوز علىٰ حقوق المارة فيه. لكن ما استوقفني حقاً هو أن أكياس النايلون التي يستخدمها الجميع في المتاجر والمحال الكبيرة والصغيرة، إلا ما ندر منها، هي بألوان زاهية دائماً، الابيض والاحمر والوردي والازرق مستبعدين اللون الاسود تماما ، اللهم إلا من استخدامه في جمع النفايات، كنت توقفت عن هذه طويلاً. ترىٰ لماذا يغلب اللون الاسود عندنا.

أجلس في المقهىٰ، فيناول أحدُهم زميله كيس نايلون أسود، لعله قنينة خمر، مبلغاً من النقود، قميصاً جديداً.. لا أعرف، أشتري من البقال شيئاً من الفاكهة فيخفيها عني في كيس نايلون أسود، كذلك يفعل بائع الأحذية معي وبائع الخضار، يمر أحدُهم بدشداشة سوداء وطاقية سوداء أيضاً، ونحن في الصيف، كان يرتدي نظارة سوداء، هل كان ذاهباً ليقتل أحداً ما، ذاهب ليحضر مجلس عزاء ما،؟ لا أدري، لكنَّ منظره يخيف. يقول الذي يشاركني مقعدي في المقهىٰ: إن رجلاً ملثماً بقناع أسود، وقف بين يدي شرطي في إحدىٰ نقاط التفتيش بالبصرة، شاهراً مسدسهُ، ثم جاء رجلان ملثمان، ومقنعان بقناعين أسودين، وأنَّ سيارة سوداء، بلا

أرقام تقدمت منهما، وضعا فيها الرشاشة الاحادية، التي في نقطة التفتيش وذهبا الى جهة مجهولة. كل أفعالنا سوداء، أليس كذلك؟

ذات يوم، وعند دكانة أحد الصاغة، صحبة زوجتي، وضعنا على منضدة الرجل ما كنا جمعناه من حُلي، أساور واقراط وقلائد، كان الزمن زمناً للخبز والسمن والطبيب، وقد احاط الجوع والمرض بنا من أكثر من جهة، أتذكر شكل ولون كيس النايلون الذي اخفينا الذهب فيه، كان أسود أيضاً، كذلك كان إطار العدسة الملونة التي عند الصائغ، تلك التي تفحص بها اعيرة الذهب، هل كان قلب الصائغ اسودَ، اللهم لا أعلم. لكن الزمن كله كان أسودَ آنذاك. مرت الأيام، وذهب الجوع والمرض الى اجساد وبطون غيرنا في العالم هذا، لكنَّ قلوب كثيرين ما زالت سوداء، أترى لأنهم يستخدمون والى اليوم اكياساً سوداً. افعال الحكومة سوادء أيضاً، وإلا ما معنى، انها وبعد عقد ونيف من الزمن عاجزة عن تغيير لون مياه نهر العشار من الاسود الى الرمادي.

معي في عربة القطار الذي اقلتنا من طهران الى الأهواز كانت تجلس مع أمها فتاة ترتدي بنطلون جينز أزرق لكن بقميص أسود، وبعد دقائق من وجودنا في العربة التي راحت تضيق بالاحذية والحقائب وعلب المياه المعدنية، خلعت الفتاة ثوباً طويلاً، يسميه الايرانيون (مانتو) كان اسودَ، لكنه كشف عن عنق أبيض، طويل وباذخ، وصدر ابيض وذراعين بيضاوين، ومع الخضخضة التي يُحدثها القطار تساقطت منها خرقٌ وأشياء كثيرة، فقد تورم قدماها، وظلت سلسلة الذهب التي كانت تلعب وتمرح عند كاحلها تضيق، وتضيق فوق حذائها الاسود، رأيتها تشتد وتغوص في اللحم الكسروي، الشاهنشاهي الابيض. هناك أدركت ان الاسود لا يليق باحد سواها.

الكينتوسي أو رفّاؤو الخزف

يسمّي اليابانيون عملية إصلاح الاواني المكسورة (فن الكينتوسي) ويذهبون أبعد في تقييمه، فيقولون هو فنٌّ إحياء الجمال، لأنهم يستخدمون الذهب والفضة والبلاتينيوم في تجميع قطع الاكواب والمزهريات والاقداح المكسورة، وإظهارها بالشكل المختلف، عمّا كانت عليه، حيث ستكون الاجزاء الملتئمة واضحة، يتخللها الملاط الذهبي، فلا يعيبونها عند أحد، لأنها ستكون أثمن قيمة، وأكثر جمالاً، وأخلد في الذاكرة، وما العملية هذه إلا مغامرة أخرىٰ، لا يحسنها إلا الرفاؤون المهرة، وهي حرفة كانت منتشرةً في اليابان والصين، ولعلها أتتنا من هناك، فقد كانّ مشهد الرفائين وخيّاطي الخزف مؤنساً لنا، وهم يجوبون الأديرة والقرىٰ منادين بأصواتهم التي ما زالت تتكسر في اسماعنا أباريق وصحونا.

الكينتوسي فن مأخوذ من حكاية قديمة، مفادها أنَّ أمير الحرب(أشيكانا يوسيما سا) كسر آنيةً خزفيةً كانت مفضلة لديه، وحزن لكسرها، فأصلحها له الحرفيون في الصين، ظنّاً منه بأنَّهم سيعيدونها الى هيئتها، حيث كانت جميلة، لكنه لم يكن مسروراً بالنتيجة، فقد رآها مرممة بالمسامير والاسلاك- هلّا نعود بالزمن نصف قرن ويزيد، لنتذكر أمهاتنا واقفات قبالة أولئك الرفّائيين، وهنَّ يحملنَّ أباريق الشاي والقصاع والصحون الخزفية، آملين إصلاحها على ايديهم- والمشهد كان مألوفاً لنا، في المقاهي، مع خيوط الشاي الحمر الداكنة، وهي تنزُّ من شقوق الاباريق المرممة بالمعدن البخس، فيتلقفها الجمر.. ياه، كم سحقت ارواحنا المشاهد والمعاني تلك، ولم

تكُ حكاية الامير قد وصلتنا بعد. لكنه، لم يرضَ بما صنعه (المهرة) الصينيون فذهب بها الى أقرانهم اليابانيين، الذين رمموا قطع الآنية المكسورة بملاط من الذهب والفضة والبلاتينيوم، فعاد مسروراً بالمعنى الذي خلقته النظرة الاولى لها.

ظلت شقوق الاناء واضحة ومعلومة، لم تأت عليها يد المحو والاخفاء، هي فلسفة (الوابي سابي) عند اليابانيين، التي تقوم على مبدأ البحث عن الجمال، في كلِّ ما هو غير مكتمل وناقص، أو هي فلسفة (فنتاي) التي تعبّر عن الندم عندما يتم إهدار شيء ما، هذه الفلسفة التي تقوم على مبدأ تقبّل العيوب، وإظهارها في افضل حلّة وصورة ممكنة، والجرأة على تسليط الضوء عليها، إذْ كل قطعة مكسورة تعدنا بمعنى ما، وإن كانت جزءاً من تصميم سابق، فهي الآن شكل جديد، متفرد بذاته، يقوم على فلسفته الخاصة، وفي كونه يتقدم الينا لا بوصفه مسهماً في شكل سابق إنما بكونه يتمتع باستقلالية، قائمة بوجود الاجزاء الاخرى، وما الملاط الذهبي إلا الروح الجامعة، التي تغذي الجسد المرمم ذاك.

منذ لحظة الترميم الاولى أصبح لكل جزء موصول بالاجزاء الأخرى حاضر جديد، وتاريخ مستقل، وجغرافيا خاصة، فقد أعيد الحطام المتناثر بالملاط الذهبي، لا على الهيئة البليدة تلك إنما بالروح المتماسكة، العصية على الكسر. الكينتوسي يبعث برسالة عظيمة الى الانسان، رسالة ترغمه على إعادة اكتشاف نفسه، والتفكير بصيرورتها التي لا تقف على شكل ومعنى، وتجبره على تقبّل عيوبه، وعدم اللهاث وراء الكمال، فنحن بني البشر مكسورون بشكل أو بآخر، وكسورنا هذه مصدرٌ للجمال لا للقبح، وهي قوتنا التي لا يجب أخفاؤها.

في حديقة الشاعر

الذين كانوا يمرّون على النحّات نداء كاظم، في الصيف الماضي، وهو يعيد بناء وترميم الساحة الصغيرة، التي تحيط تمثال الشاعر بدر شاكر السياب، المنتصب على ضفة شط العرب منذ سنوات، كانوا يشفقون عليه، وعلى الفنيين، في دائرة الموارد المائية، وفيه من سخر من جهد كبير يضيع في تمثال، وليس ببعيد قول أحدهم: ترى، ما قيمة التمثال والشاعر، هذا الذي تسخّر البلدية والدوائر الاخرى جهدها ومالها من أجل إعادة الحياة لتمثاله؟ ونجزم أنَّ غيرَهم سيقول، متيقناً: الشعر والثقافة والفنون والآداب قوامُ كلِّ وعيٍ وعَمادُ كلِّ امة فلم لا؟ لكنهم يهمسون، نحن، نسكن بلاداً ما زال غالبية أهليها يخلعون القداسة على كل مُذهَّب وأخضر تحديداً، وعلى كل ما ارتفع مئذنة او قبة، وكل مبكى مقصود، إذ كل ضريح مقدس من وجهة نظرهم. في معاينة وحيدة، غريبة، ومن زاوية واحدة، تشيح بعين حولاء عن كل ما هو مبهج ومسر وحضاري، هؤلاء، الذين خلصوا الى تسمية المقدس ذاك (مقدسهم) لا يعنيهم من مفاوز الجمال الكثيرة شيء، ترى، ماذا عن رائحة الخشب الرطب في سرير جدّي، الذي على النهر، وماذا عن افريز الطابوق المنطبق على الماء، ساعة ظميئ الافق وأنسرحت الشمس؟

قبل شهرين، وقد ظامني قنوطي ويأسي ساعة، وجدتني مستلقٍ عند شجرة للنارنج، في حديقة حافظ شيرازي، وقد غُمرتُ للحظات بالاخضر والمعصفر

والبرتقالي، كان العشب وسادتي وثمار النارنج اللاهبة مصابيح لا تعد، فيما كانت السماء بغيم شتوي بارد. لاُيحصي سدنة بستان وضريح الشاعر عدد اشجار النارنج، أسمّي بستانيي الحديقة التي تحيط الضريح سدنة. هي غابة تحيط، ودائرة يستقبلك عند بوابتها قاطعُ التذاكر، ويأخذ بيدك دليل سياحي، سيحدثك عن حافظ الشيرازي، الشاعر إن أردت، والتقي المتصوف والشيخ إن أردت ايضاً ، وقبل وصولك المرقد المقدس، هناك من يامرك بخلع حذائك، وفي موضع ما من الحديقة ستسمع أشعار حافظ تتلى، عبرصوت قدسي، يزينه العطرُ ويُكمل بهاؤه شذروانُ الماء. الايوان الطويل، الذي يفصل الشارع العام عن الضريح، بممرين. أشجار الحور عند المدخل، وغابة النارنج هناك، تحيط القصائد والمسلات، التي حفرت عليها أبيات من شعره، ومنذ الصباح الباكر وعمّال البستان يقطفون النارنج، يضعون مرقاة الخشب على أشجاره ويقطفون، تركوا الثمر البرتقالي على العشب، فتدثر بالاصفر البرتقالي، ولم يعد أخضر، تركوه هكذا، لتتناهبه كاميرات الزائرين.

حين القت بي السيارةُ، التي اقلتني من مطار دبي الى فندق الراديسون بلو، بالشارقة حملت جسدي بعجالة الى السرير، ونمت، ولما طرقت الشمسُ نافذة الصبح، وأزحت الستارة قليلاً ، فوجئت بالبحر، ما كنت أعلم انني كنت نائماً الى جواره البارحة. كانت الريح تاتي رطبة فتبلل ثوب الضجر، في المدينة التي كانت يباباً قبل خمسين سنة، ثمة تماثيل لخيول اربعة، سوداء، تزيّن مدخل الفندق، وثمة عشب طويل يرافق القادمين الى البوابة. المكان هادئ وجميل، والبحر الذي يصحو باكراً ظلَّ ازرق، مزبداً على الشاطئ، لكنني، ما زلت ضجراً، أبحث في أرقام هاتفي عن رقم لصديق، ما زال بعدُ مقيماً في البلاد البحرية هذه !! ومن الحديقة الاسيوية، التي يقع عندها مطعم الفندق، رحت التقط الصور، هذا شلال ماء يؤتى بمائه من

محطة التحلية، مباشرة، وهذه بركة تسبح في قاعها السلاحف والاسماك الملونة، الكائنات المحبوسة في الحصى، تذكرني بالنهر القريب من بيتنا، وقد أعدمه الملح فهجرته كائناته، هم جاؤوا بالسنديان الجبلي سيقانا من أرزة بلبنان ربما، وبالحور والمطاط الافريقي من غابة النمور فصار الفندق غابة.

على مقعد في المطعم، قبالة الخيول الاربعة والغابة المتحولة، وجدتني، متذكراً تمثال بدر العظيم، الذي عند مدخل نهر العشار، حيث لا أحد يقدّس الشعر أكثر من تقديس العراقيين له، أسأل، أما في المدينة من يقوم بتوسعة الفسحة التي حوله؟ ومع كثيرين من محبي الشعر والرسم والموسيقى أحلم بحديقة صغيرة، تحيط التمثال، الرمز، وأذهب بحلمي بعيداً حتى لأتخيلني نائماً في المكان الرطب البليل، الذي تؤمنه السعفات الطوال، وهي تروح وتجيء على الروح العظيمة للشاعر، الذي، أقسمُ : أنّ ليس في البصرة على عظمها، بيت يخلو من رسم له، فهو مزار البصريين بحق.

من شـرفةِ بفندق جبهة النهر

بطيئاً، سحبنا حبلُ الناقل الكهربائي (التلفريك) الى قمّة الجبل، في مدينة بورصا، باسطنبول، ومن شاهقٍ ثلاثة الآلاف متر، التي بلغتها، كنت أطلُّ عـلى الغابـة. قـال قائد الرحلة: إن الغابة مليئة بالدببة والسناجب والغزلان والحيوانات الأخرى، ومع أنَّ المطر كان هميّاً، دافقاً، معانداً الريح، إلا أنني تمنيـت أنْ أظـل هنـاك، أعـيشُ بـين رطْب ويابس الاحراش سنجاباً صغيراً يخاتل غرماءه في الحجور، متنعماً بما في سـحر الغابة من خضـرة وينع وجمال.

لا أعرف كيف تسللتْ الى ذاكرتي الصورة الملتقطة من الجـو، والمنشـورة في أحـد كتب دائرة المعارف البريطانية عن البصـرة، والتي تظهر فيها غابة النخـل الشـائكة، وهي تلفُّ شط العرب من الطول الى الطول، حيث لا يبين من النخل سـوى قصـر أغا جعفر، أو ما يعرف بقصـر السباع. صـورة غابـة النخـل هـذه، كنـتُ شـاهدتها وشاهدها، فقد فتحت عيني عليها، وصـارت جـزءًا مـن مشـهد يـومي، أتقلـب في صفائه وخضـرته ومائه، قبل أن أطّلع عليها منشورة في كتاب، ومن ثـم متداولـة في وسائل الاتصال الحديثة، فلطالما منّيت نفسي بأن أضلَّ طريقي الى البيت، لأظل تائهاً وحيداً هناك، في الغابة التي لم يبق من نخلها شيءٌ اليوم.

حينَ سار المركِبُ بنا وسط البسفور، متجهـين الى جزيـرة الامـيرات، في الرحلـة التي إمتدت ساعتين من الزمن، كانت الامـواج الـزرق قـد اغترفـت الانفـس مـن بهجتها ما شاءت، وسقوف المباني والقصور مغطاةً بالقرميد الاحمر، وبينهما سماء من

غيم أبيض، قطني، يتقطع ويلتئم، في مشهد لطالما تقلبتْ على رفْرَفِه العواصمُ الجميلة. كل مبنىً من آيات النعيم والبذل، وكل قطعة من الارض سندس يرين على نفسه، وكل خطوة قرب الماء فردوس، والى حيث أخذنا المركب، كنا بين شاطئين يتناوبان الغضارة علينا، كان البحر ينسرح في حكاية عن السلاطين الذي كانوا، هل كنّا بلا سلاطين؟ أقول !!

بقرية السبيليات، التي عنّون اسماعيل فهد اسماعيل روايته بها، على شط العرب، في ابي الخصيب بالبصرة، عند قصور السادة، النُّقباء الطالبيين، الذين منهم السيد طالب باشا النقيب، مرشح العراقيين للعرش، في أول دولة عراقية سنة ١٩٢١ كانت المركب قد أخذتنا ذات يوم، مع نخبة من أدباء وفنانين، من محبي السفر بين الانهار. لم يبن من باب القصر سوىً ما كان كتيبة من خشب عريض، خُطّت في لحظة عفيفة في الزمن، وقفنا متأملين سياج الورد الجهنمي وهو ينهمر أحمر على الماء، نخل كثير من البرحي الراسخ في الطين سقطت ظلاله على العشب، وعلى ممرات القصر من الخلف، ثمة فلاحون يروحون ويجيئون نحونا، إماء وجواري وفلاحات ملأن الجرار، ها هنَّ يصعدنَّ حجر المسناة الى جوف مظلم في الثنايا النائيات من النخل، خلل بساتين لا حدَّ لها... هل حلُمتُ؟ ربما، لكنِّ، لا أظنني أخطأت الحلم، فقد شاهدت مثل هذه وتلك، في الجولة العريضة التي كانت لنا في بيوت السلاطين العثمانيين، باسطنبول.

إذا كنت ممن يبحثون عن تاريخ الكتابة في مقهىً، عليك أن تجتهد قليلاً، وليأخذك أحدهم، عبر الناقل الكهربائي(التلفريك) الى (مقهىً بيير لوتيه) حيث كان الكاتب الفرنسي، الذي سمّيَ المقهىً باسمه، ستجده هناك يحشو غليونه تبغاً، قريباً من قبر حبيبته، التي فارقها منذ عشرة أعوام، وحين عاد لم يجدها، أحدهم

أخبره بأنها: "ماتت". هناك، ستجد نسخاً مخطوطة من أوراق كتبها، وصوراً عن مراكب تفككت أخشابُها، مقاعد من شجر غابرٍ، جُزّ ليصبح مجلساً لقراء أوهِموا بجدوى الحياة، مثلك وأشياء أخرى تعيدك في الزمن الى لحظة ظلت تتعقبك.

هناك، على المقعد الذي ليس لك، ستستعيد ذكرى (مقهى البدر)على الكورنيش شط العرب بالعشار، قبالة فندقي (سان جورج وجبهة النهر) حيث كان يجلس بدر شاكر السياب وسعدي يوسف وزكي الجابر ومحمود عبد الوهاب ومهدي عيسى الصقر وحسين عبد اللطيف، وحيث كنت تجلس أنت وحيدر الكعبي وجمال جمعة وعبد الزهرة زكي وعادل مردان ووو. هل أذكرك بقصيدة سعدي (سقوط فندق النهرين) هلّا تذكرت معي صورة الفيس برسلي عند مدخل فندق جبهة النهر؟ هل أدلك على بقايا شجرة الواشنطوينا، التي تطاولت في السماء، فبلغت غايتها منها هناك، حيث يعتنين راقصاتُ ملهى الف ليلة وليلة بكلسوناتهن.

أنشود النخل

1

مؤسفٌ قولنا أنه: لم يبق من أنشودة غابة نخل بدر شاكر السيّاب وكثير مما تغنّى به الشاعر سوى ذكرى طائر ميت على حبل غسيل، فقد أخفقت الطبيعة، خلال العقود الست الماضية بالاحتفاظ بما بين يديها نخل وفاكهة وظلال وإنسان ايضاً، أخفقت لأنها لم تجد من يرعى بهاءها وفسحة الأمل، التي نمت وترعرعت على ضفاف الأنهار هناك، في البصرة، وأبي الخصيب بالذات، في الأرض التي خصَّها الله ذات يوم، لتكون الجنة، حيث تختلف الأطيار وتتباين الكركرات، وحيث الشمس واطئة يعوزها أكثر من نهار كي تبلغ أشجار العنب، وأقفاص الفاكهة والخضار، وميازيب المطر. لقد ذهبت إلى غير رجعة، تلك الأفياء، التي لن تنبض في غوريها النجوم بعد اليوم.

أمسِ قال لي جاري الذي يسكن قطعة البستان الصغيرة، التي بقيت حوالي البيت، بأنَّ حنينه شدّه إلى صوت (الفروند)-آلة صعود النخل- وهو يتصادى على الجذوع، وإلى أغاني الفلاحين والطوّاشين والنواطير والبلاّمة، حيث تعلو أصواتهم، بين النخيل والأنهار في مواسم النخل(التلقيح والتفريد والتدلية... والتي تكون أجمل في موسم جني التمر (الگصاص) ويقول متوجعا: بأنه لم يعد يرى (الدراكيل) وهم جماعة العاملين، على جني التمر(الگواصيص والذين على السفرة وعمال نقل

الصناديق والطواشات وجيش العاملين الآخرين) في الجواخين والمكابس من القادمين من أرياف بلدات شمال البصرة والمحمرة والمحرزي، يعبرون، ويقيمون ليضيفوا الجمال والدعة والغنىٰ لغابة الظلال التي كانت.

ظلَّ يقول الكثير عن الخرّاصين والضامنين والمكبّسين وحملة الزنابيل إلىٰ العنابر، وأنا عاجز عن وصف مباهج الناس، هنا في شهري آب وأيلول من كل عام، عاجز لأنَّ كل ما أتذكره ويتذكره لم يعد قائماً، انا مفجوع يا ناس، لأن كلَّ ما كان حياة وبهجة صار ذكرىٰ، حتىٰ الإنسان لم يعد ذاك الذي كان، فقد تغيرت ملامحه، فصورة أبي الفلاح، صاعود النخل، الگاصوص لا تشبهني أنا، أبنه، كانت ملامحُه من رُطَبٍ وعنب وأجاص، وصورتي اليوم من يأس وخذلان واسمنت.

يخرج الكثير من البصريين أيام الجمع والعطل وأوقات الفراغ، باتجاه الفاو والسيبة وسيحان والقرىٰ الأخرىٰ، الواقعة علىٰ ضفة شط العرب الجنوبية، لصيد السمك، مستصحبين خيوطهم وشباكهم وصناراتهم، ولأنه موسم صيد الشانك، واحد من أفضل أنواع السمك البصري، يعيش في البحر وشط العرب، يعاجل هؤلاء النهار والليل، فالشمس تشرق علىٰ الصيادين والمصطافين هناك، هم يقصدون القرىٰ تلك، قبل ان تندلق جرة النهار علىٰ الماء. الشمس المحرقة، الرطبة الواقفة، لا رادع لها بعد أن أجهزت حرب الأعوام الثمانية علىٰ غابة النخل والفاكهة، وأحالت الضفة الظليلة الوادعة ميدانا للبنادق والقنّاصة وإحتراق الأجساد. بين الأحراش والحفر الطينية المالحة، في جزيرة الشاهينية، رأيت أحدهم ينصب الفِخاخ وأقفاص الجريد الصيادية، ذات البوابتين، رجل يغطّىٰ رأسه بقماشة سميكة من الصوف والقطن، رأيته يطبق بأقفاصه تلك علىٰ بلبل يتيم، قادم من جهة عبادان. هالني ما سمعته منه، يقول بانَّ البلابل البصرية المعروفة بتغريدها الجميل، غادرت

(أبو الخصيب) والسيبة والفاو وسكنت ذاك الصوب، بعبادان، حيث الظلال قديمة ماتزال، فأصرخ : إنهم يقتلون البلابل إذن.

نكتب القطعة هذه، التي بحسب بدر، الشاعر: (حشرجات الروح أكتبها قصائد لا أفيد) ونحن نعلم أنها لن تقرَّ في سمع أحد، من حكّام المدينة، ذلك لأنهم لا يقرأون ما نكتب، ولا يتوجعون لما نتوجع منه، ولأن المكان لم يعد ممكنا لتصوُره كائنا قبل نصف قرن من اليوم، بعد أن أجهزت العشوائيات عليه، وأحالت الأفياء سباخا وقذارات. نكتب لأننا لا نريد أن نموت.

منذ ان صارت الطريق سالكة بين البصرة وطهران، عبر وسائط النقل الصاعدة من المحمرة إلى هناك بخاصة، صار البصريون يستمتعون عبر زجاج نوافذ السيارات والقطارات العابرة الى طهران وشيراز واصفهان وخراسان بمشهد خضرة الحقول والبساتين وشلالات المياه النازلة من الجبال، بطعم الماء النازل عبر نهر الكارون، بطعم اللبن بالنعناع، معبأً بالبلاستيك، بكثير من ما وزعته الطبيعة على سكان بلاد ما بين النهرين وفارس على حد سواء، ذلك لأن ولاة امر البصريين في عراقنا الجنوبي لم يحفظوا لطبيعة بلادهم انساناً ونخيلا وفاكهة وخضرة، حتى لكأن الحياة لم تنبت في بلادهم، لكأن الظلال ما كانت مسرات ومباهج لقلوبهم، وما وقفت على العراجين في بساتينهم البلابل.

قرائن البصـرة الثلاث

المطر والسياب والموت

1

بموته المبكر، يكون السيَّابُ، الشـاعرُ قـد وهـب شـتاءَ البصـرة قداسـةً كانـت الفجيعةُ قد إختطت بعضَ خيوطهـا، حتـى صـار أهلهـا يتحسسـون الـبرد والمطـر والوحول أيضاً بذكرى رحليه، محمولاً بسيارة علي السبتي مـن الكويـت الى الـزبير، ليرقد أبدياً، مجاوراً مولانا الحسن البصـري.

فعلت (أنشودة المطر) قصـيدة السياب الاشهر ما لا يفعله الموتُ في أنفـس أهـل البصـرة، إذ، ليس بينهم من لا يذكرها في صفحته، كلما غامت السماء وهطل المطـر، وليس بينهم من لاينشدها بداية كل اتصال بحبيته. هكذا يتحـول الشـعرُ الى لازمـة تأمل، والى حديث عابر عن الجمال، خلف كلِّ نافذة مغلقة، وأسفلَ كلِّ شـرفة، فقـد انسحب خيطُ الحزن من نسيج قصـيدته(أتعلمين أيَّ حزنٍ يبعثُ المطر؟)الى مبـاهج كلِّ طاولة في مقهى على شط العرب، حتى صار المطرُ يُشـربُ مع فنجان القهـوة، أو مع كاس النبيذ، في بيت يطلُّ على نهير صـغير، حيـث تميـل نخلـة، ويشـرئب عنـقُ امرأة.

لستُ معنياً بألعاب الكـرة، ولا أعـرف عـن الانديـة الرياضـية(عراقية وعربيـة وعالمية) إلا القليل مما أسمعه، لكنني، أستشعر الزهو، من مكاني هذا في قيعة النخـل والانهار، وهم يتحدثون عن ألعاب سيبتدأ مارثونها هنا. أبدو سـعيداً، لأنَّ مـدينتي

ستحتضن جمهوراً كبيراً من الشباب، عراقيين وعربا وسيرون مدينة مختلفة، أو سيتذكرون تأريخاً مختلفاً في أقل تقدير. أولادي وأحفادي أيضاً سيحملون أجهزة الـــ LCD الى غرفة الخطار لمعاينة الالعاب، ومن هناك سأسمع الصخب والشتائم أحياناً، فيما أنا ما زلتُ أهاتف صديقي، لأحدّثه بحديث الكتب التي جئت بها من معرض الكتاب، ببغداد.

اطالع مقاطع فيديو وصوراً فوتوغرافية، يبثها مدونون بصريون متحمسون، فيما مركبة الخشب القديمة، بلونها التركواز مازالت تطوف المدن، وترفُّ عليها بيارق الاشقاء العرب. وفي بغداد يسألني سائقو المركبات الصغيرة عن أسعار الفنادق في البصرة، وعن تصنيفها ومواقعها فأشير عليهم بهذه وتلك. هناك مدينة تحتفل على غير عادتها، يتنفس سكانها انتماءَهم العربي، ويتطلعون الى من يعانقهم على طول هجران وتنكر، وقد اتسخت قلوبهم بضغائن غير عربية، ولاقوا من جيرانهم في الشرق والشمال ما لاقوا.

مرةً، سألتُ أحدَ الاصدقاء في المملكة العربية السعودية عن سر تعالق الثقافة السعودية بالثقافة العراقية، على القطيعة الطويلة بين البلدين، وعلى متانة علاقتها بمصر ولبنان فقال: يشعر المواطن السعوديُّ بانتمائه الى العراق عبر جملة مشتركات، ليس أقلها القبيلة، ممثلة بالعمومة والخؤولة، وليس اكثرها صفات الكرم والقوّة والمنعة التي يتمتع بها العراقيون. كلما غامت السماء واتت نذر المطر هاتفني أبو نايف، صديقي من الرياض، متمنياً للبصرة وأهلها صيباً نافعاً، غاسلاً ملحها ، داعياً الله الى برء ما أصابها من قرح، ومن هناك تعبرني صباحاته ومساءاته، إنَّ خيط المحبة طويلٌ: يقول.

لا يحلم البصريون بانْ تتشبه البصرة بأيَّ مدينة خليجية أخرىٰ، لا الدوحة ولا دبي ولا الكويت.. أبداً، هم يريدونها بصرة خالصة، من طين وماء ونخل وشعر وشطٍ مهيب وأرض لا تُناظرها الارضون، ويريدونها عربيةً خالصة، بلا عجمة، في رأيٍّ، ولا انحراف في عقيدة وفكر، يريدونها مدرسة يفزع الىٰ عظمتها كلُّ عربيٍّ، ويفاخر بتاريخها كلُّ خليجي، مدينة تدخلها مراكبهم ومركباتهم من أيِّ نقطة علىٰ حدودها. فهي الحاضنة والام، والخليج الذي ينتهي عنده كل ماءٍ عربيٍّ. هل نذكِّر بأنَّ السيَّاب مات هناك، في القيعة الرطبة، عند ماء الخليج؟

2

ولكي انفي عن نفسي تهمة كتابة الورقة هذه، سأقول بأنني عثرت عليها في لوح طيني بـ (بيث بصرياثا) الآرامية، هكذا مثلما يفعل صديقي، المندائي يحيىٰ الشيخ، مع مدوناته، التي يستلها من الماء، هناك، حيث يكون القصب لائذاً بالريح، يبتكر نايا لروحه. ولأنني ابن نخل، سآخذ طريق التراب إذن، علني أعثر علىٰ حطام الكمنجات التي كانت علىٰ قميص نوم ابنتي، تلك التي كسرها الكهنة، المحتفلون بوضع الحجر الأساس للمعبد المئة بعد الالف، في المدينة الصغيرة، التي يحتفظ أبناؤها بالمُدىٰ والسكاكين في صناديق النحاس، منذ أزمنة لا تعد، خصومهم كثر وحروبهم تترىٰ، وكنتُ رأيتهم، وهم يأخذون الىٰ المقبرة أسطوانات شاكيرا.

ولأنَّ اللوح من القدم، فقد أعيتني الحيلة في قراءة السطر الأخير، هو شفرة رابطة بين البغاء والآلهة، لعلها عشتار، التي خرجت من المعبد ذاك. لكنني كنت تعقبتهم، وهم يزيحون، وبالجرافة الصُلب ممشى الياسمين، في الحديقة العامة، قالوا إنهم كانوا يجددون قبراً، هو مما القت به ألواح النسيان في لحظة التذكر، فقلت: وهذا بشار ابن برد، مولى وشاعرٌ وشارع ومفارزةٌ يلتقي عندها باعة الشعر والتمر والفاكهة، من أهل البصرة بالنساء النازلات اليها من أعالي الفرات. كانت بيوتهن مفتّحاتٍ في النهار، مغلّقاتٍ عليهن في الليل، وكان الحرس بالباب لا ينهر أحداً، حتى أنني، وبخطاي الالف الى القصيدة، لم أحص الفوانيس التي اعماني ضوؤها على أجسادهن، لذا، لن أسمي النساء اللواتي رأيتهنَّ مقطّعات في طريقي الى المعبد، ما زلت احتفظ بشرف لحظة الصمت، وسأظلُ أبحث في لوح آخر، سنة أخرى، علني أفيق على بركة لا تشبه البركة الحمراء التي بجانبي.

جاء الماء على اللوح الذي أريد، وصارت الاحرف طيناً، فطفقت في آفاق المدينة، أبحث عن نسخة منه، ووجدتها، يقول اللوح: ما ذنبي، أنني ولدتُ في قرية لا يقرأ كهنتها ألواح أجدادهم، وهم لا يفرقون بين عشتار البغي وعشتار الآلهة، بين حمامة ابن حزم والذين جاءوا بعده، بين الضريح الذي صار مفازة للقتل والقصيدة التي تنفسها الزائرون وتقدست، حتى استحالت أبياتها طلعاً ونبيذاً، هم اخذوا الالواح الى كاهن آخر، وكنت أحسبُني الآخر العارف، وها أنا أصيح بهم: لو أن بدر ابن شاكر يُزار لوقفتُ في منتصف الطريق الى ضريحه، وطلبت من البلدية طلاء شبابيك داره، التي على النهر، بجيكور بالأزرق، لأمرت العارفين من اهل التاريخ والجغرافيا، بهدي الناس الى قبر رابعة القيسية، العدوية، منشدة الشعر وقائلته في

بيت ابن آل عتيق، كاهنة القرن الهجري الثاني، مشنّعاً، مع سـرمد الطـائي القـائلينَ بانَّ قبراً بعيداً لها بجبل الزيتون، أو لم تكن الطريق الى هناك بعيدةً على مثلها؟

يصـرحُ الحجّاج كاظمٌ، النحيل الذي لم يكلّف ربَّـهُ طينـاً كثـيراً، في واحـدة مـن ألواحه التي عُثر عليها بـ (بيث بصـرياثا) بانه لا يصـلّي، لكنـه ظـلَّ يفـاخرُ الاولـين والآخرين، من الشعراء والكاتبين، بالطهر الذي عليه ذراعُه، ومثله كنـت قـرأت في ما ترك حسين عبد اللطيف، الذي عاش طـويلاً بأحـد اخمـاس محلـة الخليليـة، يـومَ كانت تؤتى من بشار بن برد، المـولى والشـارع والشـاعر، فهـو الـذي يقـول:" عـلى حصـير البحر يوماً جلستُ، أغالبُ الأمواج في وحدتي، فمرةً أعلـو، وأكثـر المـرات أنحطُّ، أدرأُ بالشبهةِ عن أصبعي جناية اللمس".

أمامي، في خزانة الأبنوس المرصعة بالنحاس، التي ورثتها عن جدتي، كِسـر مـن فخار، كلما أعيد ترتيبها تظهر بمعنى آخر وصـورة جديـدة، عـلى خاصـرتها كتابـة غامضة، نقشٌ من الشذر، أزرق ونيلي، لا يفصحُ عن شيء، فقد أبهَمه كاتبُه، استغلق على الرواة وباعة الانتيكات في السوق، ولم يحدد أحدٌ له زمنـاً، ولم يُعـرف لـه معنـى وقصد، ويوما إثر آخر، كنت أشاهد أحرفاً وعلامات جديدة تنبت عليه. ما هو بزقٍّ خمر ولا مبخرة معبد ولا غليون تبغ. هو لوح من الطين، حسب.

3

في المدن التي نتجنبُ تسميتها، في الجنوب الذي كان يقودنا الى البحر وما يزال، في الارخبيل الرطب، ذي القوارب الالف، ينتزع الحكامُ اليافطاتِ والعلاماتِ الموصولة بها والدالة عليها، ويستبدلون الارض والسماء والهواء، بما في قراطيسهم من الظلام والصلف والهراوات، هم يريدون من طواطمهم أن تملأ أزقتها فزعاً ، ومن خرائطها القديمة أن تظل ممددةً على الطاولات، مصلوبةً في الحيطان، وفي الاقبية السود، حيث لا يفكر أحدٌ بتذكرها عند نقاط الحدود، لا يسحرهم شكلها الذي كان، فهي ومنذ عقود مضت تستغيثُ في الصور. كل أسماء مطاعمها توحي بالتقزز، ولا تسمع في مقاهيها اغنية عن الماء إلا منقوعاً بالدمع والندب، فلا أحد ياخذ بيدك الى متنزه على النهر. وفي لحظة تطهّرها من شعراء السوء والزناة والرواة الكاذبين، في اللحظة العلوية تلك، هناك من يشعل الحرائق في جسدها.

يقول شاعر المدينة، الذي لم يذهب لمكة حاجّاً:" أنا، لا أراها.. أنا أتذكرها حسب". تذبل المدنُ في ذاكرة اهلها إذا ظلت تنأى في وجدانهم شيئاً فشيئاً، والمدينة حيث يسكن هذا وذاك ستظل تنأى الى أمد بعيد، ذلك لأن ما تمزّق من صورها على الارصفة، وفي تقاطعات الطرق الى جهاتها الالف جعل منها مجرد ذكرى مدينة. ربما يجد مؤرخو المدنِ الحججَ للمدن التي تنشأُ حديثاً ثم تنهار، في باب من أبواب تذليل الاسباب، لما يحدث ، وقد تغامر جماعة من البنائين فتقوم بين أيديهم مدينة جديدة، على وفق ما بحوزتهم من الخطط والطابوق والاعمدة والاسمنت، لكنَّ صلاح

الحواضر أمرٌ صعب، أو شبه مستحيل، في حال ضياع الخرائط، وانعدام الهويات. في المدينة التي كانت، المدينة الوهم، حيث يتأمل الناس المصائر، هناك جدار ضخم في الروح، يحتمي تحته نفر قليل منذ عقود.

في حفلة الاخذ بالنواصي، تستبدل البلدية اسماء الشوراع والمدارس وأفران الخبز ومحال البقالة أيضاً، فتضع أسماء غريبة، تأخذها عن معجم فطير لم يبوّب بعد، أو تستلها من أسلاب شخوص ووقائع تكونت خارج الزمن التقليدي للمدينة، اسماء ملغّزة، لا خضرة في ديباجة حروفها، ويجهلها السكان، ولا فضيلة لها سوىٰ أنها تضاء بالنيون ومصابيح اللدّ البيضاء. البلدية لا تحدّث في الخرائط، فهي لا تملك مفاتيح خزائن الخطوط، هي تمحو، حسب، إذ كل مولود لا يمتدُّ حبله السريّ عميقاً في الاصلاب، التي تناوبته، صاعدة ونازلة فيه هو عارض، لأن الجوهر يتصل والعارض ينقطع، وكلُّ مبنىً لا يسمّىٰ بحقيقة وجوده منتزعٌ من عرقٍ غريب في الارض، وليس موصولاً بالماء والطين والينع والنخل هو طفحٌ جلدي، عاهة، وإن كتب بماء الذهب، وأضيء بالفضة، بل كلُّ جسر لا تستل مادة طلائه من ألوان طيف المدينة، الموصوفة في الخرائط القديمة، لا يصل بين ضفتين، وإن مدَّ الىٰ النهايات.

يأتي الهواء من الشط حامضاً، كبريتياً، هو مشبع حدَّ الموت برائحة اليافطات الكثيرة، حيث تنعدم الحياة هناك. في إختلاف الناس الىٰ حاجاتهم، في رواحهم وغدوهم اليومي، مؤسف قولنا: ثمة من لا يجدُ في ذلك تقطيعاً للأوداج.

4

لا ينطوي البصريُّ على شيء في وجوده وتكوينه، بل ليس له وجود مختلف بهذا الشأن، إلا بما هو متعارفٌ ومعلومٌ عند الآخر، فهو أقربُ الى كتاب مفتوح في حديقة عامة، ربما لرغد في العيش، ولطبيعته الفكهة أولاً، ولخلو ذاته من المضمر السيئ ثانياً، أو لأسباب نجهلها، ففي الروح البصرية شيء من بذل متصل، على قلة ما لديها، وهناك قوة ايجابية، مصرح بها في القول والعين، خالية من البغضاء والكراهية، لذا، فهو سريع التعريف بنفسه، ولا يتحسس من لونه، ولا من حاجته أحياناً، ولأنه كذلك، فهو لا يضمر أسراراً كبيرة، ولعل العيشَ الى جوار الماء لا ينتج شخصية مركبة، توحي بشيئ وتكشف عن آخر، فهي خصيصة الآخر، المختلف جغرافياً، وإذا كانت لديه خشية من شيء ما فهي في تجنبه الاصطدام بمركز القرار القوي في السياسة والدين والمجتمع، ولعلنا لا نجده فاعلاً في الاروقة تلك، إنما مكتفياً بوجوده على هامشها، متطلعاً للحظة خلاصه، عبرالحضور والتخفي، اللعبة التي يحسنها حسب.

قد لا يكون الرأي هذا مطلقاً إلا بالقدر الذي نعرفه عنه، وربما شاب الصورة هذه شيء ما، بسبب المنقلب الاجتماعي، الذي حدث بعد سنوات العسكرة والنفط والميناء، لكنَّ المدينة تكشف لنا في كل سانحةٍ عن سر من أسرارها، في لعبة الحضور والتخفي تلك. ففي واحدة من الليالي الاخيرة لمعرض الكتاب، وفي حفل فرقة (عراجين البصرة) المختصة بالغناء العراقي القديم (غناء المقام) وفي قاعة المسرح الكبيرة، حيث قدمت الفرقة بعضاً من الاغاني البغدادية والبصرية

والموصلية، رأيتُ الاسرة البصرية حاضرة القاعة، متناغمة مع ما يُنشد ويسمع، في خلق واحتشام رفيعين، وفي احترام مكنون للآخر، وسلوك حضري، ينمُّ عن سابقة كانت لها، كان هناك سعي باتجاه معاضدة ما يدور على المسرح، باصغاء ومشاركة وتفاعل، وبما ينذر بانه سيقلب الطاولة على الوحوش والطائفيين.

كانت الأجسادُ تتمايل طرباً، منسجمةً مع الموسيقى، والصوت الشجيُّ لقارئ المقام يستحضر النخل والنهر و(ماضي الايام الاتية) والاكفُّ تُشيرُ وترتفع وتصفق، مشاركةً الايقاع بشجنه الجميل. ربما كنا، نحن الاجداد، مَنْ استحضرت أزمنتهم الاغاني التراثيةُ تلك، وقد استدعت سلالمها في الروح، أو أنها كانت لعبة أخرى من العاب الحضور والتخفي، التي عُرف البصريُّ بها، إلا أنَّ الجيل الجديد هو من ملأ القاعة، أولادنا وأحفادنا، الذين تسربت الموسيقى الى أرواحهم أيضاً. نحن بحاجة الى توقف أمام المشهد الجديد، وربما أدرك كلُّ ذي لبٍّ، متشدد، ومتأسلم، ومتحزب متطرف من أرباب الطوائف وتجار الحروب المقدسة بأنَّ فعل الموسيقى وعموم الفنون وتعاطيها بشكل واسع إنما يشكل هزيمة أكيدة لوحوش قلوبهم.

ورأيت فيما رأيت صبيَّة بربيعها الخامس عشر، صحبة شقيقات لها، كن اتخذن من مقاعد أربعة مهاوي لأجسادهن، كلهن جميلات جميلات، إلا هي فقد فاقت الجمال معنى وطفولة، وانفردت عنهن ببشرة بيضاء تفارطتها صهبةٌ وحمرةٌ، فطغى نمش، هو مثل رذاذ عطري، لم تتمكن من ترويض طفولتها، إنما ظلت تغالبها بإيماءة من يدها، ثم أنها راحت تداعبُ شعراً جثلاً عكلاً احمر، فينهمرُ مرسلاً مالئاً القاعة نبيذاً وسَكَراً، فتحار أعينٌ، وتشرأبُّ اعناقٌ، وتنقلب دنى..يا إلاهي، إجعل المدينة آمنة من أجلها.

الاملُ مشوبٌ باليأس
الى عبد اللطيف الكباسي

بين الشعر ودوافعه والحياة شعراً مسافةٌ لا تحدُّ. ولأنني شهدتُ الحياةَ باحتفالها يوم كانت شعراً، قبل أنْ أقادَ الى الشعر ودوافعه، فقد وقعتُ في المحنة- التي هي من القساوة عليَّ اليوم- بما لم أعد أملك الدوافع لكتابة شيءٍ، ليس له علاقة بالشعرِ والله، ذلك لأنني، مخلوق في قرية كان كلُّ ما فيها من الناس والماء والنخل والخضرة يخطني قصيدة قصيدة، ولأقل: يكتبني شعراً، قبل أنْ أذهب لكتابته.

لكنَّ المحنة تطلُّ علينا بتضاعيفها في كلِّ مفصل من مفاصل الحياة، بعد أن أُستُبدِلَ المالُ بالناس، وهلك كلُّ ما هو أخضر، وذهبت الى غير رجعة غابة النخل والفاكهة، وهاجر دونما موعد لعودته كلُّ طائر.. هكذا، وفي بحر من سنوات قليلة، صارت كلُّ القرىٰ والاديرة في ابي الخصيب جزءاً من المدينة، ممدوداً بالاسمنت والاسفلت والمركبات والنفايات بعد أن كان مقطَّعاً بالانهار والظلال والبساتين. فمن أيِّ خراب يأتي الشعر، من أيِّ مخاضة للقبح تأتي القصيدة، وقد صارت الامكنة طاردة لأهلها، وامحت حيطان الطين واحترقت اسيجة السعف والقصب، وتهدمت سقوف الجذوع والمانغروف، حيث لم يعد أحدٌ يسمع نقر درابك في الليل، الليل الذي بات أقصر من أنْ يداهمه فجرٌ بلا سنابك خضر.

وسط غابة اليأس هذه، هناك من ما زال يحمل منجله طاهراً عن كل عيب، ومنزهاً من الشرور..هناك من ظلَّ يجالد لكي نكون. عبد اللطيف الكباسي، الذي مازال يتخذ من قرية حمدان مقاماً أبدياً له، واحد من هؤلاء، الذين مازالو يقارعون

الخراب بالفسائل، والماء المالح بالتوسل من الجيران، ألّا يجعلوا شبكة صرفهم الصحية في النهر، الذي يسقي منه زروعه، وللتضييق من رقعة قبح الانفس راح يغرس ما شحَّ، وندر، واستحال غرسه، من الفسائل لمن سأله، لا يبتغي مالاً أو وجاهة. هذه اليد التي خلقت لتهَب، هي التي تقاتل لكي تدرأ وحش التصحر واليأس والقنوط.

أمس، وبعد أنْ كشفت السماءُ عن زرقتها، اثر ليلة ربيعية ماطرة، هاتفته لحاجة لي عنده، قال: تعال. لم يكتف بحاجتي تلك، إنما ظلَّ يزيد بها ويزيد، تسأله عن فسيل فيعدك به، وتستعلمه عن سبيل فيأخذ بيدك اليه، يطالعك وجههُ النَّضر المحبُّ فتشعر بأنَّ الخير مازال ممكناً. أخذني الى كل فسيل غرسه هذا العام، فوجدته فرحاً باخضرار سعفاته، والى كل نخلة أثمرت لديه مسهباً بذكر حلاوتها، وطيب طعمها، يضع يده على ما تفتق وتبرعم توّاً فتسمع وجيب النسوغ صاعدة نازلة، حامدة، شاكرةً، وعلى خلاف الناس، زارعين وغارسين، وجدته قليل الشكوى، حتى أنه أخذني الى الترعة التي يسقي منها أرضه، وقد اندفع المدُّ بطيئاً بأول خطواته، حاملاً القناني الفارغة واكياس النايلون وما يلقي جيرانه فيه، غير غاضب من أحد، لكنني، تمكنت من الوقوف على أمل مشوب بيأس في نفسه، بأنْ يكونوا أقل إيذاءٍ له.

لم أحفظ أسماء النادر من الفسائل التي غرسها، لكنه راح يسمّي ما أتى به من مدن وسط وجنوب العراق، فهذه من الناصرية، وتلك من العمارة، وغيرها من بغداد والرمادي وديالى وكربلاء والحلة.. وحين لم يجد من الاسماء ما يكمل دورة الفسائل عنده، قال هذه نخلة هاجر، فقلت متعجباً: لم اسمعْ بهكذا النوع؟ ضحك، ثم همس باذني منشداً: سميتها باسم هاجر حفيدتي. ابو خالد، عبد اللطيف الكباسي كتب القصيدة التي استعصت عليّ أمس.

غزلان لندن وسلاحف أبي الخصيب

1

يقول سعدي يوسف، الشاعر حين التقيته في مقهىٰ بلندن، قبل نحو من عشر سنوات بأنه لا يودُّ التأخر أكثر، ذلك لأن سائقي المركبات يبطئون من مسيرهم، إذا حلَّ الظلام، خشية أن تصدم مركباتهم قطعان الغزلان التي تعبر الطريق من الغابة هذه إلىٰ الغابة تلك.

تذكرت الحكاية هذه وأنا أفكر بالرد علىٰ الكاتبة والروائية دنىٰ طالب، ابنة الفنان والملحن المعروف طالب غالي، التي تعيش وعائلتها في كوبنهاجن منذ اكثر من ٣٠ سنة، هي التي كتبت لي سائلة ما إذا كانت السلاحفُ والثعابين والضفادع والقنافذ والسناجب وبات آوىٰ ما تزال تعبر الطريق من أنهار وجداول البستان هذا إلىٰ ذاك، علىٰ طول الطريق التي بين البصرة وأبي الخصيب، في المشهد الذي كان معروفا لمستخدمي المسافة تلك؟ لم أتمكن من إمساك لحظة الألم التي انتابتني ساعتها، ذلك لأن العزيزة دنىٰ لم تشهد الصورة بعينها، حيث كانت فقد تركت الوطن وهي غرٌّ صغيرة.

ولأن المشاهد هذه جزء من ذاكرة المكان الممتد نخلاً وانهاراً وغبطةً وعبر مئات السنين من نهر الخورة وقرية البراضعية حتىٰ آخر نقطة في رأس البيشة بالفاو، ولأن

غابة النخل تلك كانت واحدة من جنان العراق والجنوب العربي حيث كانت مستوطنة لمختلف الحيوانات البرية بما فيها الذئاب والخنازير الوحشية فضلاً عن انواع كثيرة من الافاعي والثعابين والسلاحف والقنافذ وبنات آوىٰ وسواها من اصناف الطيور والزواحف وغيرها، ولوقوعها بين النهر (شط العرب) وصحراء الزبير فقد ظلت مأوىٰ ليلياً لكثير من وحوش البرية، التي تعبرها سراً تحت جنح الليل، مثلما هي حديقة واسعة لأنواع متعددة من الطيور. اما المشهد الذي ظل في ذاكرة الزائرين فهو الذي تستحضره دنىٰ، وهي تتحدث عن السلاحف والأفاعي التي غالبا ما كانت تموت مسحوقة تحت عجلات مركبات الخشب، وهي تقطع الطريق فجراً، محملة بأصناف الخضار والفاكهة، قاصدة سوق المدينة الكبير في البصرة القديمة.

يقول سائق المركبة الخشب-جارنا- الذي يتخذ من ركن منهدم قرب بيتهم مجلساً له اليوم، بعد ان اعياه الزمن كدّاً ومرضاً، بأنه كان غالباً ما يتوقف ليقطف العنب والتفاح والرطب من البساتين وهو جالس في مقعده بالمركبة، ذلك لأن الطريق كانت ضيقة إلىٰ الحد الذي تخشىٰ علىٰ وجهك من لطم أغصان الخرنوب والتوت التي تدخل عليك النوافذ، فقد كانت الأشجار تحفُّ المركبة في كثير من الأماكن، وكنا إذا بلغنا قرية مهيجران فجراً، وقبل عبورنا جسرها الجميل، نتوقف ونفتح الشبابيك لتمتلئ صدورُنا برائحة أزهار ملكة الليل، وفي قرىٰ مثل اليهودي والسبيليات ودرب المِحَيرات ومحيلة الصكاروة وغيرها يصير بمقدورنا انتقاء النوع الذي نريده من الرطب والعنب، اثناء مرورنا قاصدين العشار أو عائدين منه. أما مشهد الافاعي والسلاحف والقنافذ التي تدهسها المركبات فمشهدٌ يوميٌّ، حيث نكون غير قادرين علىٰ تفادي دهسها احيانا. في موسم الربيع بخاصة، حين يبلغ

مستوىٰ ماء المدّ أعلىٰ منه في أيام السنة، آنـذاك تتحـول القطعـة السندسـية تلـك إلىٰ واحدة من اجمل بقاع الكون، لأن رائحـة قـداح الطلـع وزهـور المشـمش والخـوخ والبمبر والفاكهة والخضار تجعل المكان فاغماً، يضوع بكـل انـواع العطـور. عـن أي ذكرىٰ جميلة اتحدث؟

العزيزة دنىٰ: الذي ظلَّ مما كنت تشاهدينه، أو تسـمعين بـه قليـل جـداً، بعـد أن فقدت الغابة مقدرتها علىٰ حماية مستوطنيها من السلاحف والأفاعي والقنافـذ، بعـد أن قطّعت الجرافـات أوصـال غابـة النخـل، بعـد أن اقتلعـت المسـرفات النخيـل وأشـجار الفاكهـة، وبعـد أن إمّحـت الظـلال تلـك هـاجر الكثـير مـن أصـدقائنا (الوحوش) من سكان الطبيعة، الذين لم يكن لحياتنا معنىٰ لولاهم.

اتحدث عن الضواري التي كنتُ اتفادىٰ أسـرابها ليلا، عن السلاحف والعرابيـد والكواسج وبنات آوىٰ، أتحدث عـن البلابـل والعصـافير الملوّنـة، عـن السـناجب وبنات عرس التي كانت تملأ بطونها من دجاج غفلتنا، عن خنازير البرية التي كانـت تعبث بحقول البرسيم ،عن النجوم والأقمار التي كنا نجمعها من الجداول آنذاك.

2

يطيب لي أن أتفحص جسد المدينة ومعاينةُ ما ظلَّ منه عـامراً ومـا تهـرأ وتهـاوى، ساعة أجد نفسي متحرراً من القراءة والكتابة. البصـرة مدينة انهار لا تعدُّ، وعُرفـت عبر التاريخ، على أنها بلاد ذات طبيعة تجمع بين النهر والنخل والبحـر والصـحراء، وما قاله متكلمُها خالد بن صفوان في النصف الأخير من القرن الهجري الاول خـير دليل على سعتها وتنوع ما عليها من البشـر والارض والزرع والحيوان والطير. ظلت المدينة بأوصافها تلك حتى سبعينات القرن الماضي، وكلنا يحفظ ما قاله الشـاعر بـدر شاكر السياب:" عيناك غابتا نخيل ساعة السحر.. "أو، "وكركر الاطفال في عرائش الكـروم.." و"أجـراس بـرج ضـاع في قـرارة النهـر" و"كـانما تنـبض في غـوريهما النجوم...." من قصـيدة الاشهر"أنشودة المطر".

لم يأت التأثيث الفردوسي هذا من صور ومقتنيات بلاستيكية وضعها الشاعر على كومدينو في غرفته، وما كان ليستحضـرها في خياله، كما لم يتـوهم بـدر غابـة النخـل التي كانت تحيط به، إنما كان يتلمسها في إطلالة مـن شـباك وفيقـة، وكـان الاطفـال يكركرون حقّاً بين عرائش الكروم، ومـا في النهـر مـن مـاء كانـت (أجـراس بـرج) والنجوم تنبض وتتراقص في الغور.. لم يقتصـر التأثيث هـذا عـلى شـعر بـدر، فقـد تسـرب وعـبر الـزمن الى قصـائد ومـدونات شـعراء وكتـاب ورسـامين وبـاحثين وطلاب، وتغلغل عميقا في الذاكرة الشعبية، عبر ما تنتجه الاسـر ويتداوله الناس في حايتهم اليومية. صورة الكوخ والنهر والنخلة تشكل مجمل مـا يرسـمه الطـلاب في

دفاتر الرسم بالبصرة، وهكذا ظلت الأرض بخضرتها الممتدة، والسماء بزرقتها العريضة، والقوارب بأشرعتها وهي تتهادىٰ في شط العرب خلفية لكل صورة معلقة علىٰ جدار ببيت. كان الطفل في المدرسة يرسم النخلة علىٰ النهر وهو مغمض العين. ضمن الحياة تلك، ومن عمق الطبيعة الساحرة هذه، كان البصري قد استل روحه الموصوفة بالشعر والرقة واللطف.

في ستينات القرن الماضي كنت أسعدُ بمجيء أولاد خالتي، الذين يسكنون محلة البراضعية ، القريبة جداً من مركز المدينة، والتي لا تبعد عن قريتنا سوىٰ أربعة كيلو متر، نحن في قرية السراجي، علىٰ النهر، مبتدأ أبي الخصيب، كانوا يسمونا (أهل الجنوب) إذ نحن جنوب عندهم، ويفرحون إذا قالت لهم خالتي: "غداً نذهب لبيت خالتكم بالجنوب". اليوم أستعيد أسباب سعادتهم. لم يكن في ضاحيتهم آنذاك، بستاناً ولا نهراً ولا نخلاً ولم يروا بقرة ولا قارباً ولم يروا ثمراً معلقاً في شجرة، فقد سبقت البراضعية قريتنا في خروجها من كونها قرية، ودخلت خريطة التخطيط (العمراني) قبلنا، فيما بقينا، نحن أبناء السراجي وعويسيان أهل قريةٍ. لهجتنا مختلفة وألعابنا أيضاً، ليس لدينا ساحة واسعة للعب كرة القدم، لكننا أبطال في الكرة الطائرة، بشرتنا سمراء نعم، لكنها طرية، لأننا لم نتعرض للشمس طويلا، ويمنحنا الحليب الطارج صباح كل يوم نعومة في الوجه واليدين، نأكل مما تجنيه أمي من دجاج، كان ألذّ وأشهىٰ، وله رائحة مميزة، وكنا ننام في صوباط العنب، وكان الماء عندنا متاحا في النهر، أما هم فكان ماؤهم محصورا في الصنبور..كانت لدينا أشياء يحسدنا عليها أبناء خالتي، هي بسيطة ورخيصة لكنها الاجمل والاطيب والارق والله.

يغضبني تحول حصير الخوص في البصرة أو في أي مدينة عراقية الى انتيكة معلقة في جدار، ومؤلم تصور ذلك على أنه من معاني التطور والمدنية، أبداً. ومثل ذلك ينسحب حديثنا على أريكة الجريد وسرير الخشب وحافظة الملابس التي من أغصان الرمان وعريشة العنب. لا أجد معنى في تخلينا عن الأشياء باذخة الجمال هذه. أنْ لا تجد بقرة في بيت ريفي لا يعني تحوله ثقافيا، أنْ تفقد البساتين خضرتها وتتحول الى ساحات مكشوفة لا يعني أننا نتجه نحو بناء مدن ملونة. ما هكذا، متى كانت القرية نقيصة في التكوين الجغرافي حتى أستعجلنا الخروج منها وأهمالها. من قال إن النخل والنهر والقارب وحصير الخوص والزبدة وحليب البقرة ودجاجة الفلاّحة وصوباط العنب هي مما يهجره الناس ويعاب عليهم امتلاكها؟ لماذا نستعجل مغادرة الفردوس؟ عن ماذا سيكتب اطفالنا في دفاترهم، وما عساهم فاعلين إذا ما طلب منهم المعلم رسم منظر للقرية، أيكون أنشغالهم في برنامج (المزرعة الجميلة) بديلاً عن وجودها على النهر تحف النسائم بها؟ هذه جنايات على الخيال، صدع في جدار الامل، إيغال في انتهاك صورة ما استقر وتشابك في الروح.

يشكل مثقفو العالم حائطاً لمنع هدم مقهى تعالم الناس على انَّ فلاناً الشاعر كان يجلس فيه، ومنذ عقود طويلة اعادت البلدية في اسطنبول بناء مقهى صغير كان يجلس فيه الكاتب الفرنسي "بيير لوتيه" -من أعلام القرن التاسع عشر- وهي إلى اليوم معلماً سياحياً. تحتفظ مكتبة الكونجرس بنيويورك الى اليوم بكرسي ت. أس. اليوت. ومثل ذلك كثير.

ما كنت أحسب أنَّ أوراق الاشجار يمكن ان تكون حمراء وبرتقالية، كنت اظنها مما يتخيله الرسامون في روما وباريس ولندن، قبل أن أراها كثيفة على الطريق السريع بين روما وفلورنسا. المكان الكتابي يفقد تأثيثه لدينا، والكائنات التي كانت

تتحرك في النصوص الكتابية خرجت ولم تعد الى الابد، صورة الفلاح في حقله وهو يحرث ويغرس ويقطف باتت ترى في شريط فيلمي. النهر والنخل وعريشة العنب وماكنة السقي والشجرة التي تظللها على النهر باتت منحوتات وصوراً في مخزن لبيع الانتيكات، نذهب لاقتنائها، في رحلة حياتية تحولت بالخطأ عبر مسار من التراجع والفقد. إذا كانت الكتابة الابداعية قد تلكأت في تحولها كنوع أدبي فاعل في الحياة فالسبب يعود في بعض اوجهه الى انتهاك حرمة الطبيعة هذه. هو ارتداد ينعكس سلباً في الكتابة والتذوق الجمالي.

أحدُهم زحزحَ الصخرةَ الكبيرة

ذات يوم، وقفتُ الى جوار رجل، بدا لي ثملاً من عشق مضى عميقا في قلبه، كان يهذي بكلام كأنه من كلامنا، فهو لا يُحسن من قول الشعر أكثر مما يُحسنه طالب في مرحلة تعليمية متوسطة، لكنه، وبلفظ يعوزهُ الكثير، راح ينشدني قائلاً:" اللهم، عزّت المُنى وشحّت المطالبُ، وأنا كما تراني، قليلَ الصبر، واسعَ الغم، يكفيني من ليلك الطويل هذا طينٌ أسدُّ به رمق الفكرة، هو مما سوّته يداك امراةً، ولتكن محلولة الشعر، رطْبتُه، تتوقف ساعةً عند سريري، تقرأ الشِّعر بلغةٍ، أيٍّ ما كانت، وترحل.

لعلي، دبّجت الحكاية هذه مدخلاً، أو حدّثني بها أحدُهم وأهملتها، أو أنني قراتها في كتاب نسيته، غير أنني تسلمت ما يكفيني من الشعر فيها، لم أشأ السؤال: من القائل، وما وجدتني بحاجة الى معرفة البحر الذي كتبت عليه، كذلك، كان الوزن خارج اهتمامي، انا ذهبت بكليتي الى الشعر، فرأيتُني مشدوداً الى اللحظة الغامضة تلك. ترى، كيف يكون الشعر إذن، إن لم يأتنا بلحظة جنون، خارج معايير الزمن التقليدي، كيف يكون إن لم يحطم فينا نسق لغتنا العاقلة، ما جدوى الوزن والبحر والبناء إن لم يعصف بيقيننا، في الفرادة والمغايرة.

إنَّ ما كان يرومه الْجَاحِظُ فِي بيت مَالِكِ بْنِ أَسْمَاءَ: "مَنْطِقٌ صَائِبٌ وَتَلْحَنُ أَحْيَانًا وَخَيْرُ الْكَلامِ مَا كَانَ لَحْنًا" لهو الشعر بعينه، فقد وجدناه ينأى بنفسه عن هذه وتلك، ويغضُّ بصره عن اللَّحْنَ، الَّذِي هُوَ الْخَطَأُ : "إنما هو ما يُسْتَمْلَحُ وَيُسْتَطَابُ مِنَ الْجَارِيَةِ الْحَدِيثَةِ السِّنِّ. ويبررُ لمالك فيقول:" هي، إنما تغوص في حديثها لئلا يفهمه الحاضرون، ثم قال: وخيرَ الحديث ما كان لحناً، أي ما فهمه صاحبُك الذي تحب

إفهامه وحده وخفي على غيره. وكما في موضع آخر:" وحديثٌ ألذّهُ هو مما تشتهيه النفوسُ، يوزن وزناً" فقدّم اشتهاء النفوس وتقبلها على الوزن وسلامة اللغة.

لقد عصفت الفلسفة بالشعر التقليدي، مثلما عصفت اللوحةُ والقطعة الموسيقية به، واستباحت قوانينُ التلقي الحديثة المنصَّةَ البالية، التي ظلَّ الشاعر ذاك واقفا عليها قروناً طويلة. وما كان مقدّساً ذات يوم، لم يعد كذلك، لقد قلبت الحياةُ الجديدةُ المعادلة التقليدية، بما جعل الخَرق سمةً، والنفورَ قاعدة، وذهب الى الجحيم الشاعرُ الذي كان يجلس عند عين الماء ليكتب لنا قصيدة عن الخريف. تراجعت، إلى الابد، اسطورة البطولة في كتب الملاحم. ومن خلف طاولاتهم الأنيقة يصيح الشعراء: نحن، أيقظنا الآلهة في جبل الاولمب ونزلنا. هنالك مجنونٌ شاعرٌ زحزح الصخرة الكبيرة.

في لحظة حبٍّ خالصة، قد يهمس أحدُهم – من غير الشعراء– في أذن حبيبته بكلام لا ترقى اليه كلُّ قصائد العشق التي كتبها أوفيد، هناك حيث تتراجع عند لحظته تلك أبحرُ الشعر التي كتبت بلغات العالم، وتسقط تحت سريره الكتبُ والمضان والقواميس والمعاجم والأنسكلوبيديات، ولن يضيره إن لم يحفظ مما قاله شيئاً، هو ابن ليلته الخالدة، ما كانت تلك قصيدة، لعلها كانت همهمةً، لا تمتُّ للغة بصلة، شيئاً مما يردده العشاق الغلاة في محاريبهم. إنَّ ما تنزل عليه لهو أكبر من الشعر واللغة والوزن والموسيقى. ليس الشعر ما نكتبه، أبداً، هو ما ظلَّ يمور وهجاً، وما تحقق في اجسادنا وانعقدت به وعليه السنتنا.

في هبوطها الى العالم السفلي نادت عشتار حارس البوابة قائلة: "افتح بابك ودعني ادخل\ فإن لم تفتح بابك لأدخل منه\ سأحطمه واكسر مزاليجه\ سأخلع عوارضه وارمي مصاريعه\ وأطلق الموتى الى سطح الأرض فيأكلون سكانها ويزداد عدد الاحياء على الأموات".

ليلة في حمدان المعاريف

لكي أصلَ حمدان المعاريف، القرية، التي سأمضي ليلتي في دارةٍ باحدىٰ بساتينها، يتوجب أنْ أتوقف عند جسر مهيجران، المقطوع، والذي تعمل دائرة الطرق والجسور علىٰ تجديده، بعد أنْ أكملتْ تجديد جسورِ(ابو مغيرة، وحبّابة، ونهر خوز، وحمدان، والسراجي) ضمن مشروعها القاضي بعقد آصرة ابي الخصيب في مركز مدينة البصرة. من الجسر الموعود أخذني أحدُ الاصدقاء بسيارته، وحين فتحت نافذة السيارة تدفق هواءٌ رطبٌ وبارد هو مما يتنسمه المرؤ عقيب رشة خفيفة من المطر، ومن النافذة المشرعة رحت أستيعدُ شكل القرية، القرىٰ ومئات الآلاف من الدونمات الزراعية، وشبكة الانهار والارومات.. مادة غابة النخل.

عندي بغضاءٌ لا أخجل من إشهارها بوجه أسيجة الحديد والاسمنت، التي تسوّر البيوت والبساتين، وبي شغفُ طفلٍ لتلمس أسوار القصب والسعف، ما ظل قائما منها، وما تداكك وانهدم، ولولا فضول الناس وصلفهم لأصلحتُ بيدي الراعشتين كلَّ سورٍ رأيت، ولطالبتهم بهدم اسيجة الاسمنت الكريهة تلك، والعودة بنا الى هندسة الجريد والقصب والسعف والجذوع والافاضة بها منازل وأسواراً ومضافاتٍ، ولجعلتها قائمةً كثيفةً حوالي كل دار وحقل وبستان. لا يتعقب الهياكل تلك إلا من كان الورد الجهنميُّ سبيله ودالته الى حقول القِثَّاء والقرع واللوبياء، ولا يتلمس معي ما أنشده إلا من كانت تعترضُ طريقه الكائناتُ المسالمة، من ضفادع

وسلاحف وأبناء عرس وقنافذ، تلك الجيرة الاثيرة، قبيلة الشركاء الذين تقاسمنا معهم خرائط الليل والظلام في غابة الطمانينة التي كانت لنا ذات يوم.

عند أصل النخلة حيثُ تفرّقتْ في الأودية زرقةُ بنطلونك الجيز جلستُ، أبحثُ في صفحة النهر عن صورتك، وهي تتكور وتتسع في هدأة الماء، والى حيث كانت شجرة الغَرَبِ اخذتني رائحةُ قميصِك، ومثل عِجلٍ ليس له خوار، ولم تدنِّس مناخيرَه رائحةُ الابقار الهرمة سرتُ خلفك، أخبُّ التراب، وأدفعُ بالفحولة الى مستقرها، وما تطمئن اليه، أهشُّ عن شعرك ذكور النحل واليعاسيب. ومثل عروة حقيبتك وهي تنعقدُ، أردتُ انْ اتسلقَ لأنعقد، تطوّحني الريح، أو أتدلى منها ميتاً، مأخوذاً بما يفيضُ من الرضا بيننا، ومن القبول عندك، أذهبُ الى ينابيعك الأولى، فتنغلق طرقُ الايّاب، عشبٌ كثيرٌ يتسلقني، وماءٌ لا قِبل لي به يحول بيني وانتفاضة أرنبيك، فأقعي، مثل سمكة صغيرة، تطلُّ من حوضٍ الزجاج على النهر. كان السريرُ قيعةَ الليل، وكانت المدفأةُ بشارة النهار، وكانت السلاحفَ تلتئمُ ثانيةً إمّا وجدتْ صفحةَ الماء ساكنةً.

وفي الليل حيث اجتمعتُ مع صديقي اليوسفانيّين(نسبة الى قرية يوسفان) أحمد عبد الرزاق الذي غادرها الى مركز المدينة منذ ثلاثة عقود، وجمال مصطفى الذي غادرها أيضاً منذ أربعة عقود ويزيد الى الدنمرك، شطَّ الحديثُ بنا تذكراً ونسياناً، أوجاعاً ومقادير.. كنتُ الوحيَد الذي لم يغادر، قلتُ لهما: انا آخر نخلة ستقتلعها جرّافة الفقد، وإن مزّقت انيابُ اليأسِ روحي، وإن سامني العوز، وأسلمتني يدُ الهجران، سأظل أميناً على أسوار الجريد والقصب، أنبتُ أقلام الصبر، في ما أرى من الأرضٍ، وحيث أكون، آيتي ما يحتفظ الناس في بيوتهم من صور البساتين والجراديغ والمهيلات، وما يعلقون على حياطينهم من السلال والمناجل والمحاريث، وما يخبئون

تحت اسرتهم من الجرار والفخاريات، التي راحت تتشقق تباعاً. الاروماتِ التي لم تكُ نجديةً بما يكفي أنشدُ وأرتجي، والى السلالات التي ظلت تأتي من كلِّ أبّلةٍ في التاريخ انتسبُ وأحفظهم عن ظهر قلب، أدعوهم لأسوار قلبي، حيث لا احد يتذكرهم اليوم.

وبحساب القدم والحديث فأنا لا احبُّ التماهي مع المظاهر الحديثة، ولست منسجماً مع ما يدور حولي، هناك هُوىً عميقةٌ تفصلني، مع يقيني بانَّ الكون يتجدد باستمرار، والتغيير سنّة في الاولين، وفي الحياة أيضاً، التي تمضي الى غير مستقر لها، حتى ابد الآبدين، لكنني متعلق بما اكتسبت، ودأبت على تلقيه، ومؤاخاته، وهو زاد روحي، ولا فضاء لي خارجه، فأنا أمين على ما الفته/ وفتنت به ذات يوم، وأردد بيت المتنبي: "خلقتُ ألوفاً لو عدتُ الى الصبا لفارقت شيبي موجع القلب باكيا" ربما لأنَّ حياتي مازالت تتجدد تبعاً لمواسم الحرث والغرس والجني، لست وحدي في الكويكب الغريب هذا، هناك العشرات ممن ظلَّ على قيد الحياة الى اليوم، في البصرة وابي الخصيب وفي مدن أخر ربما.

أكره أن تتسق الايام والاسابيع والشهور بحسب ما مدوّن في روزنامة التجار والمرابين، التي أضعها خلفي، أو بحسب ما يظهر في شاشة التلفون، ذلك لأنني أحَبُّ التوقيتات التي تعتمد آذان الصلاة، فمثلاً أقول لصديقي: أراك بعد أذان العصر في المقهى، أو قبيل صلاة الظهر ، أو ليلة الجمعة.. بين الفاظ مثل هذه أجدني متخففاً من قيد الوقت، منسجماً مع أفعال لا تقل أهميةً عن اللقاء نفسه. أسمع النساء وهنَّ يعددنَّ أشهر حمل كنّاتهن قائلات بالاشهر القمرية، :" رمضان و فِطْر(شوّال)ويقلنَّ: عيد الزغير(عيد الفطر) وعيد الجبير (عيد الاضحى) والمحرم بالعاشور، ولا يذكرنَّ شهر صفر إلا بآخره، فيقلن (طلوع صفر) وقبل انتصاف

النهار عندهنَّ هو الضحى العالي، وقبيل المساء هو مُسَيّانٌ، أما السنوات فهي بتوقيت ما قبل وبعد الفيضان، هناك خوارزمية أحبّها فيهم.

بضياع التوقيات هذه نكون قد خسرنا المواسم، فالحياة عن هؤلاء الناس تمضي- بحسب الحاجات والمناسبات، ولعل أطرف ما يذكره الناس عن توقيت صلاة الفجر قولهم (ويٌ طكة البريج) ذلك لأنَّ الاباريق كانت من النحاس، وتصدر صوتاً، والناس بلا مغاسل وحنفيات، فالابريق أداة الوضوء، وما أجمل توقيتهم بعد مغيب الشمس بساعة او ساعتين، فهم يقولون بعد ما(أيّستٌ المختاضه) والمختاضه هي الزوجة التي تركت بيت زوجها غاضبة منه الى بيت أبيها، لكنٌ، لم يرأت أحدٌ لإرضائها، فقد حلَّ وقت النوم، فهي يائسة من مجيء أحد. وأجملها توقيت مواسم الحرث والغرس والجني، والتمر هو العلامة الكبرى، فللرياح وهي تهبُّ وتخبُّ اسماءٌ، وللشمس والبرد والربيع والخريف اسماء، وللمطر والصيد والوفاء والهجر والحب والغضب... اسماء كلها تجري بحسب ما يغرسون ويجنون ويفرحون ويحزنون.

ليس هناك حرٌّ و بردٌ كبرد وحرِّ السنوات تلك، فقد يهلك بالبرد من كان جمر موقده من الكرب، لأنَّ الكرب، مثل صحبة العرب عندهم ، لا يدوم طويلاً، فهو يخمد في موقده بعد ساعة من إيقاده، لا أكثر، لكنَّ من كان جمر موقده جذوع قنطار وفحل وأغصان توت فهو أوفرهم حظاً وأطولهم ليلاً، ومن كان خصُّ بيته بأربع هطر (إطارات) فقد أمِنَهُ، ومن حصّنَ حطبه عن المطر فقد ضمن الخبز وكوب الحليب والبيض في صباحه، ومن أحرقت الشمس وجهه نائماً فقد خسر عمله وجاع، ومن لم يغلق باب بيت أبقاره وقن دجاجه ونام عنها فلا يلقي باللائمة على ذئب دخله، ومن سبقهُ الجزرُ وانحسر عن سدة شاخته الماء فقد يبس ما زرع وذبل ما غرس وهكذا. ذات يوم سمعتُ أحدهم يسمي المسحاة (عصّاة السلّ) فقلتُ له :كيف؟ فقال: هي التي تمسح البطن.

عن أبي وأخي وأبي حاتم السجستاني

صيف آخر يمضي والطبيعة أكثر خسرانا، والناس في خيبة الامل، فالنخل ينقص من حولهم، والماء نزر وبملح كثير، والفلاحون ذهبوا، خلعوا عن أجسادهم ثياب الماء والحقول القصيرة، وارتدوا السروايل والقُمص الملونة، وسكنوا المدن القريبة، حيث تتقابل وتتعامد البيوت، ولم تعد القرىٰ خضرا، فهي الجزء المشوه في المدينة اليوم، ولم يعد أحدٌ يتحدث بلغة المواسم، أو كمال وانتصاف الاهلة، وفقد حديثهم استعارات الحرث والغرس والجني، هكذا ومثل فجيعة مرّت السنوات السبعون بي، في مكان ظل يتزحزح شيئاً فشيئاً حتىٰ فقد كونه أيّ شيء.

أكتبُ هذه قبل ظهر اليوم الثاني من شهر ذي الحجة، من العام الهجري ١٤٤٤ وقد اصطبغت أرض البمبرة، القريبة من البيت بالاصفر الذهبي، فثمرها يساقطُ جنيّاً منذ أسبوع، وهو إيذان بصفرة البشير، أول (الخَلال) -فخّموا اللام الثانية معي من لطفكم- والاصفر الحلّاوي أول بُشراءِ النخل. لا اعرف كيف دخلت النخلة الحلّاوية البصرة، وكيف أصبحت خير نخيلها، وأول تجارتها الى أمريكا وأوربا وآسيا، لكنني أريد أن أذهب بعيني الى الايام تلك، وأحمل عنّها ثقل العذوق، وهي تغطس بالفيء، وهي تهبط بطيئةً الارضَ، كاملة البهاء، وأرىٰ تقلبها في الالوان، المُس الذهبيَّ الذي كان زبرجداً، وأطَعَّمُ روحي ما خرفت يداي من الاحمر الذي كان ياقوتاً، فأراني بين صيفين، مُطْعِمٍ غابر ومُحْرِقٍ مايزال.

يقول صاحبٌ لي بأنَّ الطريق الى بيتنا بعيدةٌ، وهي بمنعرجٍ وعُقوفٍ حتى يصل، لكأنه يدور حول نفسه، وأنه يخطئُ البيت كلما جاءنا زائراً، فذهب مذهب أهل المدينة، مستعيناً بخرائط هاتفه، ومسترشداً، ذلك لأنَّ النخل لم يعدْ قلتُ له: لو جئتنا قبل عشر لأهتديت، لأنني سأصفُ الطريق لك مستدلّاً بعدد الانهار والجسور وأخصاص السعف، ومسميات النخل وأصحاب البساتين، سأقول لك مثلا: إن جئت في المدِّ بعد مغيرب الشمس بساعة فخذ السفرجل، عن يمينك هادياً، وإن كان مجيئوك صباح الاحد والاثنين فسيصحبك النهر الينا دون الطريق، سوران من غَرَبٍ وجريد وحلفاء غير منتظمين بجذع، ولم يخرزا بحبل قِنَّب بعد يقودانك يا أخي، وإذا استعجلت جادّة التوت، تعلوها قمرية العنب، فهي خير، ستجدنا هناك، نائمين، فقد هدَّنا صعود النخل الطوال، أخذنا السَّمكُ الصُّبورُ واللبنُ، مخيض الفجر الى الاسرة باكرين. الفروّند طويل ومعلقٌ بالسقف، والمنجل معقوف مثل هلال بطيخة، يصيح بك أنْ هنا.

في ليالي الشتاء، وبعض ليالي الصيف أيضاً، حيث ينحسر أو يشحُّ ماءُ المدِّ، تضطرنا الحاجة الى إقامة سدٍّ على النَّهر، الذي نشربُ منه ونخلُنا وزرعُنا، لحجزه مرةً، وإحداث فتق به ودخوله ثانيةً، فنحن نفتحُ ونسدُّ، نحتجزُ ونطلقُ، وبالطين سدَّنا كلَّ ليلة، من الليالي تلك، يوم كانت الانهارُ مادة الريِّ والسقي وقوامة العيش. كنتُ وأبي وأخي نحفظ وعن ظهر قلب مواعيد طغيان المدِّ، وبطءِ وخَوَر الجَّرز، فنتقاسم النهارات والليالي، محتجِزين ومطلِقين.

في كتابه(غاية النهاية) ينقل ابن الجزري(٧٥١ - ٨٣٣ هـ) عن محمد بن اسماعيل الخطاف انه قال: "كان صاحب(كتاب النخلة)أبو حاتم السجستاني وأبواه قد جعلوا الليل بينهم أثلاثا، فكان أبوه يقيم الثلُثَ، وأمُّه تقيم الثلُثَ، وأبو حاتم يقوم الثلُثَ الاخير، فلما مات أبوهُ جعل الليل بينه وأمَّه نصفين، ولما ماتتْ أمُّهُ جعل أبو حاتم يقوم الليل كلّه.

محلة السيمر.. المدينة وهي تتوارى

عربة بدولابين حديديين مؤطرين بالرّبل، الذي يؤتي به من فضلة عربات ودبابات الجيش الانجليزي بالشعيبة، يجرّها حصان واحد لا غير كان الفلاحون يقطعون الطريق من ابي الخصيب الى البصرة القديمة، يبيعون غلّاتهم في سوقها، يتبضعون الشاي والرز والتبغ، أو تحلو بعين أحدهم امرأة خرجت للتو من بيتها، أو تاخذ النداءاتُ الصادقة بعضهم الآخرَ الى المساجد. كانت السيمر، المحلة الصغيرة المحصورة بين النهر المتفرع من نهر العشار غربا الى شريعة بن نصري ومحلة الفرسي شرقا، ومن نهر العشار شمالا الى محلة محمد جواد جنوبا، مقصدَ هؤلاء الاتباع، وجامعةً لمجمل الفرق الاسلامية، المتصالحة في العلن، والتي لا يتسترُ فيها فقهاؤها على خلافاتهم، لكنّ، في منازل الاهلة، والجمع والإفراد في الصلاة، والنكاح ومقادير الزكوات وغير ذلك منذ عقود طويلة حتى ليلة خروج السيد أمير محمد القزويني من مسجده الى الكويت سنة ١٩٧١.

ربما كانت السيمر آخر تمظهرات الحياة الاجتماعية والدينية في البصرة القديمة. كنتُ قد شهدتُ بعضها، ففي المحلة الصغيرة يجتمع بأتباعهم ثلاثةٌ من كبار فقهاء الشيعة(الأُصولية، والشيخية، والبحرانية) كلٌّ له مراجعه وطريقته في التعبد والولاء، ويقابلها أكثر من مسجد وخطيب لأهل السنة، من الشافعية والمالكية والحنابلة، وما كنيسة مريم العذراء للسريان الأرثوذكس في البصرة، ولا كنيسة الأرمن ولا كنيسة مار توما للكلدان ببعيدة عنها، وكذلك كان كنيس اليهود

بالبصرة القديمة، وهكذا كانت تكية الولي الصوفي عزِّ الدين، والتكية الردينية، وقد أقول هناك مكان مجهول للبهائية ايضاً، وربما تهدمت ابنية ومات عنها فقهاؤها وعلماؤها لأكثر من مذهب وطائفة وطريقة وحزب سياسي، وما مقبرة محمد الجواد ببعيدة عنها، هل أقول بأنَّ المساجد كانت تتداخل مع بيوت المومسات؟

حتى أواخر العهد العثماني ودخول الانجليز كان سوق كاظم آغا أكبر الاسواق في محلة السيمر، سوق تباع فيه البضائع القادمة للمدينة من بقاع الارض آنذاك، بما في ذلك القادمة من افريقيا، فقد نشطت تجارة العاج والاخشاب، لذا كانت الحاجة قائمة لفندق يسكنه التجار، الذين تضطرهم بضاعتهم الى المبيت، ومنها كانوا يتسللون الى المقاهي والمطاعم والسينمات والمسارح، فالمدينة عرفت المباني تلك منذ القدم. يتحدث رجب بركات في كتابه (بلدية البصرة) عن أكثر من ١٠٠ مقهى، وعشرين محلاً لبيع الشاي، ويسمي بعضها، ففي محلة الكواز تقع مقهى ريحان، ومقهى جسر الملح، ومقهى البخارية في سوق كاظم آغا، وأخرى على نهر العشار، قرب جسر غربان، ومقهى الحماميل في محلة السيف-تلاصق السيمر- وهناك مقهى القبلة والعرصة والعبايجي وكلها في محلة السيمر.

ليست المقاهي حسب هي التي تجاور مساجد مجموعة الفقهاء في المحلة هذه إنما دور السينما والمسارح والحانات ايضاً. وقد أجتهد بعضُ أصحاب المقاهى فأنشأوا مسرحاً، يستمتع الحضور فيه بمجالسة الغواني. فهناك مقهى سلمان صبر، ومسرح في فندق فوز، ولا يبعد أوتيل وملهى الخورة عن محلة السيمر كثيراً، في الاوتيل هذا يشرب البصريون خمرتهم، ويستمتعون باغاني المطربات والفنانات مثل الفنانة رحلو، والمغنية طيرة وغيرهن.. وبالقرب من مقهى اولكر تقع مستشفى الغرباء،

ياه، هذه المدينة كانت تؤوي الغرباء منذ مئات السنين إذن، لذا، كانت المغنية رحلو تعقد سهرات رقص وخمر ومجون لهم قبل موتهم.

لم يقتصر حضور المقاهي والمسارح والملاهي على طبقة كبار موظفي الحكومة فقد دخلها الضابط في الجيش، والتاجر الغريب، والمسافر المتأني وغيرهم. في احصائية نشرتها مرقّعة الهنديي جاء فيها "لقد أنفق على الراقصات اللواتي كن في البصرة في ستة الاشهر الماضية عشرة آلاف ليرة عثمانية، مفصّلة حسب نصيب كل راقصة والافراد العاملين معها، المبالغ هذه صرفت على شكل نقد أو هدايا حليّ وذهب ومشروبات كحولية" لم يشتك فقيه فيها، ولم يتذمر خطيب، ولم يُطرد مخمور.

المحتويات

كتاب النخل.. كتاب البصـرة ٥
في فضلِ أهلِ النَّخل على العالَمين ٨
اللبنُ أعطياتٌ والوردُ يُتهادى ١٠
الطريق الترابية تلك ١٢
فسيل أقصى السِّباخ ١٤
في الشـرفة وما ينبغي ١٦
أصطفي من الريح قصبةً وأجيء ٢٢
حديث من تجاوزَ الستينَ بخمس ٢٥
خمس حكايات من ابي الخصـيب ٢٧
أنا وعبّاس و مالك بن دينار ٣٥
الصـيحةُ المدويةُ في النخل الى اليوم ٣٧
أحلامنا التي لا تولد ثانيةً ٣٩
النَّهارُ حامضٌ وأنتَ تموتُ بهدوء ٤٢
بحر وصخور واشـرعة ٤٤
ما تاركٌ في الارض، ما صانعٌ أنت بالسماء؟ ٤٦
الريحُ تسوسنُ اغنيةً هناك ٤٨
المدينة ملح والهراوة من الجريد ٥٠
من مراثي الجمال ٥٣
في ذكرى (حارس الفنار) ٦٠
في مجلس الشبَّان الاربعة ٦٦
على دجلة بفندق السفير ٦٨

صوت القادمين من المسـرات ٧٠
الترابُ دالّة الوقت ٧٤
في الممر المعتم الطويل ٧٧
الشاعر في بريّة خلوده..... ٧٩
الحبُّ في البصـرة، والنبيذُ من أربيل ٨٣
الاسَّوَدُ لا يليق بأحد سواك ٨٥
الكينتوسي أو رفّاؤو الخزف ٨٧
في حديقة الشاعر ٨٩
من شـرفةٍ بفندق جبهة النهر ٩٢
أنشود النخل ٩٥
قرائن البصـرة الثلاث ٩٨
المطر والسياب والموت..... ٩٨
الامـلُ مشوبٌ باليأس..... ١٠٧
الى عبد اللطيف الكباسي..... ١٠٧
غزلان لندن وسلاحف أبي الخصـيب ١٠٩
أحدُهم زحزحَ الصخرةَ الكبيرة ١١٦
ليلة في حمدان المعاريف..... ١١٨
عن أبي وأخي وأبي حاتم السجستاني ١٢٢
محلة السيمر.. المدينة وهي تتوارى..... ١٢٤